الباب الثاني

ثورة الشباب
والأحفاد

بنتي الوحيدة العزيزة سوزي
انا مشتاقة لك جدا جدا جدا ودائما في فكري كلما ذهبت الى اي مكان. وطبعا مشتاقة
الى احفادي الصغار حبيبي كما كتبت الاعزاء.

الفصل الأول

حفيدة إيزيس

(*)

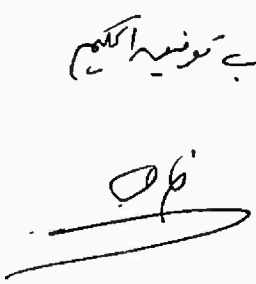

- وتظنى أنه يجب أن تموتى لا سمح الله حتى أعرف قيمتك ؟!
- مرسل إليك شيك بمبلغ ٥ آلاف جنيه !
- وإذا لم يفهموا ذلك فالويل لهم !
- فذلك لكى أبرر للمسئولين عدم حضورى مجالس .. الثقافة !

(*) غلاف ظرف أحد الخطابات التى كتبها الحكيم لابنته .

كانت زينب كأخيها تتخذ قراراتها مع أمها ، وتنفذها بعيدة عن والدها ، فضلا عن أنها انسانة تعتز جداً بنفسها وآرائها ، وتثق فى قدرتها على اتخاذ القرار السليم ، فكانت تحسم أمورها بنفسها وتشكل حياتها كما تريد ، وحينماتزوجت لأول مرة وصفها ذات يوم فى تصميمها(*) بأنها مثل « إيزيس » ، بطلة أحد كتبه الذى أهداه لها قائلا :

إلى ابنتى زينب حفيدة إيزيس فى عيد ميلادها

١٧ أكتوبر ٨٦

توفيق الحكيم

* * *

وحينما تعارض استكمالها لدراساتها العليا مع تفرغها لبيتها وأولادها « مريم ، واسماعيل » ، احتكم زوجها « نبيل حسين » فى خلافه معها إلى والدها الحكيم الذى انحاز إلى وجهة نظره فى أن تتفرغ زوجته للبيت والأولاد .

(*) تنبأ توفيق الحكيم قبل زواجه فى مقال بأهرام ٢١ يناير ١٩٤٥ ، ببعض الصفات التى ستكون عليها ابنته بعد إنجابها إذا حدث وتزوج يومًا ، وقد صدق الواقع بعض هذه الصفات حين يقول « تجمح أحياناً وتنفر وتحيد عما رسمته لها من إتجاهات ، وتحاورنى وتداورنى بمنطق عجيب يعجز عن تقديره تفكيرى العتيق ، إنها رفضت كل من تخيرت لها من أزواج أكفاء ، ووقعت فى غرام (.....) وإنها لترجو أن أوافق على هذا الزواج ، إنها تتحدث عن الحب كأنه الأساس الوحيد لكل حياة زوجية فى عصرنا الحديث ، وأنها تزعم أن ذلك دليل نضوج الشخصية فى الإنسان ، وأن الزواج المبنى على الحب هو وحده الجدير بفرد فى مجتمع راق » .

ولكن الزوج شعر بخطئه الكبير عندما جعل زينب تمكث فى البيت ، واعترف للحكيم بأنه لو لم يفعل لاستمر زواجهما أكثر مما استمر .

وكان ما يهم الحكيم فى هذه المرحلة الحرجة من حياة ابنته هو الترتيب لحياتها فيما بعد وقوع الانفصال ، فطلب منها أن تنزل بشقته بالاسكندرية ، ولكن زينب أساءت فهم والدها الذى كانت تنتظر منه أن يطلب منها أن تكون معه بالقاهرة ليكون عونا لها وسندا فى مثل هذه الظروف ، ولذلك ظنت أن والدها أبعدها عنه فى وقت هى فى أشد ما تكون حاجة إليه ، ولكنها لم تستوعب وجهة نظر والدها الذى أرادها أن تتحمل مسئولية قراراها بنفسها ، وأن تواجه متطلبات حياتها الجديدة بما يناسبها ، فربما شعرت برغبتها فى العودة عن قرارها ، وبذلك يعفيها من الحرج فيما لو واتتها مثل هذه الرغبة وهى معه بالقاهرة ، فهى الآن لم تعد صغيرة ، وعليها أن تعتمد على نفسها ، لأن والدها لو عاش لها اليوم فقد يختفى عنها غداً ، والظروف مواتية للقدر ، وهو فى مثل هذه السن المتقدمة .

هذا هو تفكير الحكيم لابنته وهو يطلب منهاالانتقال لشقته بالاسكندرية ، فى وقت هى لم تفكر فيه كيف ستعيش بعد طلاقها .

ولما جاءت زينب فى زيارة والدهابعد أن هدأت واستقرت ، أوضاعها الجديدة ، لم يسألهاعماحدث . كيف ، ولماذا ؟ .

وإن كانت هى رغم ذلك قد أبقت على صداقة زوجها السابق من أجل أن تظل علاقته بأولادها موصولة غير مقطوعة ، يزورهم ويزورونه ، وتتشاور معه فى أى قرار يخصهم ويتعلق بحاضرهم ومستقبلهم ، مما جعل الحكيم يتعجب من هذه الطريقة التى تربى بها زينب أبناءها بالاشتراك مع زوجها الذى انفصلت عنه برغبتها ، ولذلك قال لها : إن طلاقها عجيب لم ير له مثيلا من قبل فقد تحول إلى فائدة للطرفين .

وإن كانت زينب لم تغلق الباب تماما أمام رغبة « نبيل » من أجل إعادة مياه الحياة الزوجية إلى مجاريها إذا ما ضمنت قدراً أكبر من التفاهم وتقارب الأمزجة وتوافق الطباع .

* * *

ورغم أن زينب كانت قد تزوجت مرة أخرى إلا أن زوجها قد فارقهاعلى غير رغبته ورغبتها ، فقد مات بعد سنة واحدة من دخوله بها ، رغم تمنيات الحكيم لهما بالسعادة الدائمة كما يقول اهداؤه له على كتابه « بجماليون » :

إلى ابنى محمد على حسن تهنئة بعيد ميلاده مع دوام السعادة له مع بنتى زوجته المخلصة وكل عام وأنتم بخير .

١٨ / ١١ / ١٩٨٤ والدكم

توفيق الحكيم

وفى عيد زواجهما الأول يهديهما « سجن العمر » قائلا :

إلى محمد على حسن وزوجته بنتى زينب حسين توفيق الحكيم تهنئة لهما بمرور عام على دخولهما سجن العمر المؤبد بإذن الله

١٥ مايو ١٩٨٥ والدهما

توفيق الحكيم

وكأنه يتنبأ بأنه لن يفرقهما إلا الموت ولكن الحياة جمعتهما مرة أخرى فى ابنهما « محمد » الذى ولد يتيما .

وبينما كانت الزوجة الثكلى غارقة فى حزنها تتلقى العزاء ، كان والدها كعادته مشغولا بالترتيب لاستقرار ابنته بعد أن تجف الدموع ، فتحدث إلى إحدى شقيقاتها لكى تواسيها ، وتطمئنها ألا تشغل بالها بتدبير أمور

حياتها فقد أعد لها كل شئ . والتقطت زينب من حديث والدها ، وهى تودع المعزين :

هل فهمت ماستقولينه لها ؟

وشقيقتها ترد عليه : حاضر يابابا ، فتوقعت زينب أن والدها يتحدث فى شأنها بما لا يتعلق بما هى فيه من أحزان ، ولذلك عندما تحدثت إليها شقيقتها بما يريد أن يقوله لها أباها ، أخذتها العصبية بالغضب وهى تظن أن والدها لا يشعر بما هى فيه من آلام اليوم ، بينما هو مشغول بالغد ، فهل هى فى إيه واللا إيه ؟! ولكنها اعترفت بعد ذلك بأنه كان على صواب ، فلم يهمه وقتها المشاركة فى سرادق الأحزان ، بقدر ما كان يهمه ما بعد الأحزان ، وبعد أن اطمأن على الترتيب لحياة ابنته وأولادها ، راح يواسيها بما كانت تود سماعه منه وقت أن تفجر كيانها بمصابها .

وبعد أن أفاقت زينب من عواطفها لتفكر بعقلها اكتشفت أنها أساءت فهم والدها لأنها لم تعرفه كما يجب أن تعرف ابنة أباها ، وكيف تعرفه وتفهمه ، وهى لم تبدأ تلتصق به إلا فى سنواته الأخيرة ، خاصة بعد أن تزوجت أرملة ابنه اسماعيل ، فكان بحاجة إلى من يؤنس وحدته ، ولم يكن هناك سواها ، زينب ، التى بدأ يرسل إليها مجموعة من خطاباته ، التى يبثها فيها شوقه وحبه باعتبارها الوحيدة التى بقيت له من الدنيا ، ولم يعد يشعر إلا برغبته فى أن تكون معه دائما كما تدل على ذلك رسائله إليها .

فى خطابه إليها المؤرخ بغير ذكر السنه يحكى لإبنته عن موقفه من زواج أرملة ابنه وتظهر عليه روح الأب الذى لا ير جو لها إلا السعادة ، وهذا الخطاب يمثل مرحلة الانتقال بين مرحلتين .

يقول توفيق الحكيم :
باريس فى ٣ سبتمبر

بنتى العزيزة الحبيبة سوزى أكتب إليك هذا الخطاب السريع من باريس بعد أن ذهبت إلى مكتب ال Air France لأحجز مكان بالطائرة للعودة يوم السبت ١٥ سبتمبر فى الطائرة التى تصل مطار القاهرة حوالى الساعة تسعة ونصف مساء . واخترت يوم السبت وهو اليوم الذى تحضرون فيه عادة إلى القاهرة على أساس أن أجازة (٠٠٠٠٠) يوم الأحد .

هذا أما بقية المشوار فهى حكاية طويلة لابد أن أحكيهالك بنفسى بالتفصيل .

ولكن ملخصها انى عدت مع فوزى(**) من اليونان إلى باريس فى منتصف شهر أغسطس تقريبا واتصلت بهيدى فى التليفون فقالت لى إنها محتاجة ضرورى لحضورى لأقابل بكر وأحادثه لأنها أهم شئ عندها أن أوافق على الشخص . وفعلا وجدته فى غاية الأدب والتهذيب ووافقت ورأيت أن الأحسن الارتباط بالزواج فى أسرع وقت ، لأن أهلها كما فهمت موافقين ولا شئ يؤخرهم غير حرجهم منا نحن أسرة اسماعيل أن يتم شئ قبل السنوية . وهذا سر الدبلوماسية والتحفظ فى كلامهم معنا . فلما عرفوا أنى أقترح التعجيل بالزواج لأن مسألة السنوية لا تهمنا ونحن لسنا دقة قديمة .

(**) صديقه د . حسين فوزى .

فرحوا جدا وكان مونى فى لندن وكذلك أشرف ، وخصوصا أن أشرف أيضا سيتزوج الانجليزية صاحبته ولن يستطيع أن يبقى معه فى شقته الصغيرة أخته هيدى ولذلك ترك بكر شقته لهيدى ونام هو فى حجرة عند أصحاب الشقة فكان من الضرورى معالجة هذا الوضع بسرعة ليرتاح الجميع ولا نكون نحن أهل اسماعيل العقبة فى سبيل هذا الحل . ولذلك فرح الجميع بموقفى وعقدنا الزواج فى القنصلية وأنا أول الشهود باعتبارى فى مقام والدها . وبعد ذلك أى فى اليوم التالى تركت العروسين ورجعت أنا إلى باريس حيث صمم حسين فوزى أن أقيم معه فى شقته بدل الفندق لأنه وحده فيها بعد أن ذهبت زوجته المريضة إلى المصحة جنوب باريس . وهكذا سأبقى مع فوزى لحين قيام الطائرة Air France فى يوم ١٥ سبتمبر : وأراكم فى خير وعافية وسلامى وقبلاتى لك و(.....) وكذلك قبلاتى الكثيرة لسوسو (***) ومريم أعز الأحفاد .

والسلام لبقية الأسرة وبالأخص منصورة[1] وإلى اللقاء قريبا بإذن الله

أبوك الذى يحبك جداً

توفيق

* * *

وفى خطاب يرسله الحكيم إلى زينب مع « بشير » - الطباخ - يحدد لها فيه الموعد الذى يمكنها الحضور فيه لاصطحابه للاصطياف بجوارها فى الاسكندرية .

وعلى ورقة متوسطة الحجم يميل لونها إلى الصفرة ، ولا ندرى من أى نوعية من الورق كان يختارها الحكيم ليكتب عليهاخطاباته .

(***) حفيده إسماعيل

(١) مديرة بيته ولها فصل خاص بعنوان « الكيك لفطور العصافير » .

يقول فى خطابه غير المؤرخ بسنة وإن كان قد حدد بداخله اليوم والتاريخ :

بنتى الوحيدة العزيزة

أرسل هذا الخطاب مع بشير وأرجو أن يكون فيه البركة لك ويقوم بشغلك على أحسن وجه خصوصا وأنت الآن ضيوفك وشغلك فى البيت أصبح كثير وأصبح ضرورى من طباخ لكل ذلك .

وهذا واعملى ترتيبك على أن حضورنا أنا ومنصورة ان شاء الله يكون فى ميعاد يناسبكم وأظن أن الذى يناسبكم للحضور لأخذنا يوم أحد . وربما كان المناسب لكم ولناهو يوم الأحد ٢٧ يونية . فأخبرونا على كل حال أن هذا اليوم تحضرون فيه لأخذنا حتى نجهز كل شئ للحضور عندكم ونكون مع بعض فى أحسن صحة وعافية وخير وسرور .

وقبلاتى لك وللأولاد والجميع والسلام ، والدك

* * *

وكلما سافر الحكيم إلى الخارج يشعر بشوق أكثر إلى ابنته زينب التى يناديها بـ « سوزى » بطلته فى « عصفور من الشرق » ويبدى شعوره بالوحشة لها وللعفاريت أحفاده ويحكى لها عما فعله فى العاصمة الأسبانية والفرنسية ، ويأخذ منه حديث الغلاء جانبا مهمًا ولكنه يواسى نفسه بأنه « لابد من الصبر واحتمال هذا الكرب » .

وفى خطابه المكون من صفحتين كبيرتين على ورق أبيض هذه المرة إذ يبدو أن باريس ليس بها ذلك النوع الذى يستعمله فى مصر ، وكعادته فى أغلب الأحيان يسجل تاريخ اليوم والشهر ولا يهتم بالتأريخ بالسنة .

يقول توفيق الحكيم : ٩ يوليو

بنتى الوحيدة العزيزة سوزى

أنا مشتاق لك جدا جدا جدا ودائما فى فكرى كلما ذهبت إلى أى مكان .

وطبعا مشتاق إلى أحفادى العفاريت الكتاكيت الأعزاء (.....) أنا سافرت من مصر مع الوفد لحضور مؤتمر فى مدريد بأسبانيا وقد استقبلنا السفير المصرى هناك أحسن استقبال وعمل باسمى حفلة حضرتها كل الوفود فى أفخر لوكاندة بمدريد . جزاه الله خيرا . وهو من أسرة عبد الغفار وابن أخ شمس الدين باشا عبد الغفار صديقى الحميم رحمة الله عليه . وقد رأينا فى أسبانيا أشياء عظيمة أخبرك بها عند حضورى إن شاء الله . حتى مصارعة الثيران المشهورة فى أسبانيا حضرنا حفلتها وشاهدنا كيف يصارع الفارس على ظهر حصانه الثور الهائج وينتهى بقتله . منظر مثير . أما المتاحف التى تعرض أهم آثار الفن الخالد مثل متحف البرادو المشهور فطبعا زرناه .. وزرنا مدينة توليدو أو بالعربى طليطلة وهى مرتفعة على جبل ... ونحو ذلك كثير . ثم ذهبنا إلى باريس وطبعا أنا نزلت حتى الآن فى شقة صديق العمر الدكتور حسين فوزى . وفى باريس لى نشاط ثقافى مستمر فقد أخذوا منى هنا فى أهم برنامج راديو وهو France Culture حديثا طويلا سيذاع هنا بإذن الله فى يوم ١٧ يوليه . وكذلك خلال هذا الأسبوع سيكون لى حديث آخر فى التليفزيون الفرنسى لم يحدد بعد ميعاده . هذا بخلاف حضورى تمثيل مسرحيتى « شهر زاد » .. وكان تمثيلها وإخراجها لا بأس به وقد أعجب الكثير من الحاضرين .

وهنا كثير من المشروعات الثقافية والفنية معروضة علىّ .. ولذلك أظن

حضورى إلى مصر يمكن أن يتحدد قبل آخر الشهر . وفى الغالب أوائل أغسطس بإذن الله .

وبالطبع سأخطركم تلغرافيا عند تحديد أى موعد للحضور (.....)

بالطبع . هذا وقد أخبرنى أحد كبار المسئولين فى السفارة المصرية بباريس أن سيدة تريد مقابلتى لأنها صديقة بنتى سوزى وقال ان اسمها « دينا » ففهمت أنها صاحبتك وزميلتك فى الدراسة بالكلية فى اسكندرية وانت وهى دائما معا فى المذاكرة . ولم يتحدد بعد موعد المقابلة . وهى كما علمت جاءت باريس فى بعثة فى السوربون وجاء معها زوجها بعد أن نقلوه إلى باريس فى وظيفة لم أفهم جيدا ماهى ؟ وجاء بالطبع معها أطفالها . يعنى هى الآن مع عائلتها بالكامل فى باريس أى مع زوجها وأولادها . أما باريس فهى غالية نار ولا يمكن تناول أى غداء بأى مطعم بأقل من خمسة جنيه مصرى . وأنا وحسين فوزى إذا أردنا أن نأكل أكلة معقولة شوية لا يمكن بأقل من عشرين جنيه مصرى لشخصين فقط . والحمد لله أن السكن فى باريس مجانا لأن شقة حسين فوزى نعمه من الله . والبركة للمرحومة زوجته التى كانت اشترت هذه الشقة . ألف رحمة عليها . ولولا الشقة المجانية لما أمكن المعيشة فى باريس بأقل من خمسين أو ستين جنيه مصرى فى اليوم الواحد للشخص الواحد . وكل الناس من المصريين هنا الزائرين ساخطين على هذا الغلاء الشنيع . ولولا بعض مشروعاتى الأدبية لكنت حضرت بسرعة وجلست كالعادة فى قهوة الكورنيش فى ندوتى مع الأصدقاء مثل كل صيف . ولكن لابد من الصبر هذا الشهر كله واحتمال هذا الكرب . والآن أنا فى الغربة أشعر بأنى لم يبق لى فى الدنيا عائلة سواك أنت فقط ياسوزى (وطبعا ومعك أولادك أحفادى وزوجك الكريم (...) وهذا الشعور جعلنى أندم كيف جعلتك تشكين فى حقيقة ضرورتك

لى وتظنى أنه يجب أن تموتى لاسمح الله حتى أعرف قيمتك !.. أنا الآن أعرف قيمتك وضرورتك لى لا فقط بالعواطف والكلام الرقيق الفارغ بل بالواقع الحى والحقيقة الواقعة . وهذه الحقيقة هى أنك باختصار كل شئ أملكه وبقى لى فى الدنيا . وهل توجد حقيقة أخرى غير هذه : إنك بنتى الوحيدة العزيزة والباقى كله كلام فى كلام . ولك وحدك كل ما فى قلبى وفكرى من حب وحنان يمكن أن يعطيه أب لبنته الوحيدة فى الدنيا . أرجو أن تكونى مجتهدة (.....) . لأنها فى الحقيقة كل مستقبلك . وأنا واثق بإذن الله تعالى من نجاحك فيها .

وسلامى لمنصورة ولعبد الجيد[1] .

وقبلاتى لك ولأحفادى ولزوجك (.....) وإلى اللقاء فى أوائل الشهر القادم بإذن الله وسأخبركم تلغرافيا والسلام ،

والدك

توفيق

* * *

ويستمر الحكيم فى اقترابه من ابنته الوحيدة ، متخذا فى ذلك عدة خطوات عملية ، حددها فى بندين ، الأول يمنحها شيك بخمسة آلاف جنيه لكى تشترى سيارة تساعدها فى تنقلاتها ، والبند الثانى هو نصيحتها وأولادها بعدم الإسراف وإلا (فالويل لهم فى المستقبل)

---

(١) هو مدير الأرض التى ورثها الحكيم عن والدته وسوف يأتى الحديث عنه فى فصل « فلاح عودة الوعى » .

يقول توفيق الحكيم :
بنتى العزيزة

١ - مرسل إليك شيك بمبلغ ٥ آلاف جنيه هو ما استطعت جمعه لك - ولم يبق فى رصيدى بالبنك بعد الضرائب شئ يذكر - لشراء سيارة صغيرة لتنقلاتك . على أن تكونى شجاعة وتسوقيها بنفسك ولا تحتاجى إلى الالتجاء إلى أى شخص ليسوقها لك . فإنى أرى فى الشوارع بنات فى الرابعة عشرة والخامسة عشرة يسقن سياراتهن بمفردهن فى شجاعة وعدم خوف مادام القيادة فى حدود العقل والأصول وعدم التهور .

وإياك أن يسوق لك أى شخص آخر . اعتمدى على نفسك وعلى الله تعالى

٢ - أرجوك رجاء ملحا شديدا هو أن تنصحى أولادك بعدم الاسراف وأن تصرحى لهم بكل شئ .. وأن الدنيا ارتفاع وانخفاض . وغنى وإفلاس ... (....) ولذلك يجب أن يلموا نفسهم من الطلبات فالمستقبل غير مضمون ..

ولذلك شطب « الفيديو » كلية من بيتكم وكفاية التليفزيون مثلى أنا ... ولذلك عدم المطالبة بالملابس الغالية والمصروف الزائد . يجب أن تفهميهم الحقيقة (.....) والدنيا دائما متغيرة وعليهم أن يفهموا ذلك ويستعدوا له لأن الحياة لن تكون دائما كما تعودوا من بحبحة وإسراف ... وإذا لم يفهموا ذلك فالويل لهم فى المستقبل والخطأ سيكون أنت المسئولة لعدم إفهام الأولاد حقيقة الموقف ... وأدعو لكم بالصبر ورحمة الله بكم ،

والدك

* * *

● وفى نفس الخطاب يحرص الحكيم على أن يكتب فى الهامش الأعلى بخط رأسى مائل بلون آخر غير لون القلم الذى كتب به رسالته لابنته ، موجها الحديث إلى حفيدته مريم ليشركها مع أمها فى المسئولية فيقول :

حفيدتى مريم العزيزة اقرئى هذا الجواب وخدى بالك كويس من أمك الوحيدة وساعديها فى البيت .

جدك الذى يحبك

توفيق

* * *

وفى خطاب يبدو أساسا أنه متعلق بشئون الأحفاد وصحتهم ، إلا أنه فى جوهره يبدو مثيرا للغاية ، ففيه يكشف الحكيم عن سر بعض كتاباته التى تحمل روح اليأس والتشاؤم ، لكى يبرر للمسئولين فى المجالس التى هو عضو فيها ، عدم حضوره ومشاركته فى نشاطاتها ،

يقول توفيق الحكيم :

٣٠ شهر ابريل

بنتى الوحيدة العزيزة سوزى

انت وحشيتنى جداً جداً جداً .. وكذلك الأولاد (....) وأرجو أن يكون سوسو[1] فى صحة جيدة . وكذلك مريم واللوز عندها تكون عادية . وأرسل لك قصاصة جرنال عن مرض الأطفال باللوز .

وعدم الاستعجال فى ازالتها إلا بعد استشارة خبير اختصاصى واحد أو اثنين أو أكثر فإذا اتفقوا كلهم بدون تردد ممكن ولكن إذا تردد واحد منهم فلا لزوم والمهم معالجة الالتهاب بسرعة .. لأننا كلنا ونحن صغار

---

(١) اسم الدلع لحفيده إسماعيل .

كانت اللوز تتعبنا دايما لغاية ما كبرنا .. واسماعيل كان كده . هذا واظنك انزعجتى للمنشور فى أخبار اليوم عن الموت والرغبة فى العزلة وعدم ازعاج راحتى فذلك لكى أبرر للمسئولين عدم حضورى فى المجالس .

فأنا لا أحضر أبداً مجلس الشورى ولا مجالس الثقافة أو المجالس المتخصصة مع أنى عضو فيها كلها . ولذلك أحتج لهم بحالتى الصحية والنفسية وموت الزوجة والولد حتى لا يفتكروا إنى متباعد عنهم بدون سبب . كل ما عندى هو القرف العمومى . فأنا قرفان من كل شئ . حتى السفر إلى الخارج . فأنا غير مشتاق له ولذلك أفضل كثيرا أن أكون معك أنت ومع الأولاد فى الصيف . وكلها شهر أو أكثر أى فى يونيه إن شاء الله أكون عندكم بإذن الله وامشى كل يوم على الكورنيش . أحسن رياضة المشى أمام البحر . وانت خدى بالك من نفسك . وأنا بخير وكذلك منصورة . ونحن فى انتظار اللقاء القريب بإذن الله . ولك قبلاتى بالألوف وأنا ليس لى الآن غيرك انت وحدك فحافظى على نفسك ،

والدك توفيق

* * *

وفى ملحق للخطاب السابق يبدى الحكيم فرحه لنجاح حفيديه ، ولكنه يتساءل عن أسباب التطور الذى لحق بابنته ، وذلك تعليقا على الأخبار التى وصلته عن عزمها على صيام شهر رمضان .

يقول توفيق الحكيم :

٢٥ مايو

بنتى الوحيدة سوزى

كنت كتبت هذا الخطاب فى الشهر الماضى ابريل وكان شقيق منصورة موجود وكتبت الخطاب إليك ليحمله معه ولكنه سافر من بره بره وبقى

الخطاب (شهر ابريل) موجود عندى لغاية ما حضرت أخت منصورة وابنها أمس فكتبت هذا الملحق (مايو) مع الخطاب السابق (ابريل) . وأكرر إنك وحشتينى جداً جداً جداً . والحمد لله إن الشهر القادم (يونيه) قريب وأحضر لكم إن شاء الله . وسأخبركم طبعا بالميعاد المضبوط لتحضروا وتأخذونا أنا ومنصورة وفى ال غالب فى أواخر يونيه إن شاء الله أى بعد شهر واحد بالضبط بإذن الله تعالى . وأخبرتنا أخت منصورة بأخباركم وفرحنا لنجاح مريم وسوسو ... أما أنت فقد سرنى أنك أصبحت مستشيخة وناوية تصومى رمضان ولكنى مش عارف أسباب هذا التطور . المهم إنه حاجة كويسة . وأملى كله أن تكونى أنت وأولادك (.....) فى أحسن صحة وعافية وأن نجتمع كلنا مع بعض فى سرور وهناء بإذن الله تعالى .

والدك الذى ليس له
غيرك انت فقط فى هذه الحياة
مع ملايين القبلات

* * *

وبدأت عجلة الاقتراب والالتقاء بين الأب وابنته تدور بسرعة ، فبدأت زينب تزوره ثلاث أيام كل أسبوع ، ولكنها لم تكن تحدثه عن شىء من حياتها الخاصة ولا تشركه فى حل مشاكلها ولا تدعوه لمعرفة أى شىء عنها ، رغم أنها تعرف أن أمرها يهمه ، وأمره يهمها ، ومع ذلك لم يحدث الافضاء بينهما إلا حينما بدأت مسيرته مع المرض ، فكان وجود زينب بجواره أمرا ضروريا يحتاج إليه شيخ فى مثل عمره ، صحيح أنه اعتاد الوحدة ولم يعد يخشاها ، ولكن من الذى يستطيع أن يسعفه بالطبيب إذا

حدث له مكروه ، ومع ذلك لم يشأ الحكيم مع رغبته فى أن تعيش ابنته وأولادها معه ، بعد رحيل زوجها ، أن يفرض عليها هذه الرغبة ، فتلك حريتها ، وما يريحها تفعله ، ولذلك أراد أن يأتى استقرارها معه بإرادتها وقرارها ، وفضلا عن حاجة الحكيم إليها ، فقد كان قلقا على معيشتها وحدها وأحفاده بدون رجل يستندون إليه ، بل إنه كان يخشى عليها من مشقة السفر من الاسكندرية إلى القاهرة حينما كانت تقوم بالتردد عليه ، وإذا أخبرته بموعد حضورها فى يوم معين يظل مؤرقا حتى تجىء ، ورغم أنها فى بعض الأحيان لا تكون واثقة من أمر سفرها فتقول له إنها يمكن تأتى فى اليوم الفلانى ، فإنه يظل مشغول البال والخاطر لا يعرف طعما للنوم طوال الليل ، ويشكو فى الصباح إلى مديرة بيته وعلامات الضيق بادية عليه : هل رأيت يا منصورة ما فعلته سوزى مما جعلنى لا أنام طوال الليل ؟

فتطمئنه وتهدى خاطره : معلهش يمكن الست سوزى لها ظروف منعتها إنها تحضر وهى ضرورى ستتصل بك لتطمئنك .

وتهاتفه زينب تليفونيا بالفعل وتخبره بعذرها الذى حال بينها وبين زيارتها .

ورغم هذا القلق من الحكيم على ابنته فى ابتعادها عنه ببلد آخر تطول المسافة إليه ، فإنها ذات مرة وكانت تزوره وأحفاده ، قال لها : لم أعد أريدكم .. سافرى أنت والأولاد » .

بل إنه أهداها كتابه (ثورة الشباب .. قضية القرن الواحد والعشرين) فكتب إليها يقول :

إلى بنتى المتعبة المزعجة لكى تتلهى فى قراءة هذا الكتاب وتتركنى فى هدوء وعقبال كل كتاب آخر يقوم بهذه المهمة ،

١٢ / ٣ / ١٩٨٤ والدك

وبعد أن تسافر يأتيها من يقول لها :

باباكى حالته الصحية غير مطمئنة . فتعود إليه ، ولما تذكره بأنه هو الذى طلب منها أن تتركه وتسافر ، يقول لها مستنكرا :

أنا قلت لك كلام بهذا الشكل ؟ وكيف أقوله ؟.. البيت بيتك وأنا ضيف عندك ، ويوم أن أغضبك وأقول لك كلاما كهذا قولى لى : خذ شنطتك وروح اقعد فى بنسيون .. إذا كان الحال لا يعجبك امشى . ويضيف مؤكدا : إن هذا هو بيتك أنت . لأننى إذا عشت اليوم فلن أعيش غدا .

وينكر الحكيم ويستنكر أنه قال لابنته « سافرى » ، فهو يريدها معه ، ولكنه فى نفس الوقت لا يريد أن يفرض رغبته عليها ، إنه يقدر حريتها ، فهذه مسألة تهم الحكيم كثيرا ، وهى أن يشعره الطرف الآخر أنه لا يفعل شيئا من أجله إلا باقتناع ، وأنه لا يفعله لمصلحة الحكيم ، بل لمصلحة الشخص نفسه ، لأن الحكيم لا يريد أن يشعر يوما أنه يمثل عبئا على أحد حتى لو كان ابنته ، لذلك جاء ارتياحه عندما وجد زينب تبدى رغبتها باختيارها أن تعيش مع والدها بشقته فى القاهرة ، لتتحول حياته بعد ذلك عن مسارها المعتاد بفارق مائة وثمانون درجة .

الفصل الثانى

أحاديث المائدة

- لو كنت وزيرا للمالية
  لشطبت نصف ميزانية الدولة .
- فقال له الشيخ الشعراوى أنه لم يقرأ أحاديثه
  مع الله !
- مكافأة ألف جنيه للتوقف عن التدخين !
- ابنتى راقصة ؟ وسمعتى ؟
- شغالة بمرتب أكثر من معاش شيخ الكتاب !
- إنت عايزة تبيعى بلدك ؟!

مع وجود زينب بجوار الحكيم بصفة نهائية بدأ يمارس معها مسئوليات الأبوة التى لم يحس بها ، أولم يعطها الاحساس بها فى طفولتها رغم أنه صاحب تسميتها تيمنا بحفيدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أنه كان رافضا لوجودها أساسا فى الحياة قبل أن تولد ، مكتفيا بابنتى زوجته ، وابنه اسماعيل الذى جاء على غير رغبة منه ، وعندما حملت زوجته مرة أخرى طلب منها أن تجهض نفسها ، وحينما استعدت لتنفيذ رغبته والذهاب إلى الطبيب ، قام بإغلاق الباب ليحول دون نزولها ، ووقف يمنعها معلنا تراجعه ، فقد تذكر أنه لم يكن يريد أن ينجب إلا أبطاله على الورق ، واطمئن فى ذلك إلى اعوجاج رحم الزوجة ، ولكن إرادة الله شاءت أن يعتدل الرحم وتحمل الزوجة وتنجب اسماعيل الذى لم يكن والده مرحبا بوجوده ، وهو لا يريد أن يقف هذه المرة موقفا جديدا فاشلا أمام المشيئة الإلهية التى هو أضعف من أن يتحداها بمشيئته البشرية ، ولذلك استسلم راضيا بقدر الله ، وطلب من زوجته أن تبقى على حملها ، فأتت زينب ، وكأنها الجزاء الذى ادخره الله لمكافأة الحكيم لاستسلامه لإرادته لتكون سنده وركنه الأمين فى سنواته الأخيرة بعد أن رحلت الزوجة ولحق بها الابن ، فكانت زينب هى ملاذه فى مرضه تطببه وتسهر على رعايته ، وتتابع مواعيد تناوله الأدوية بانتظام .

ولم تفارقه طوال فترة وجوده بالمستشفى ، التى كان مديرها يداعبها ويقول لها :

أنت لك أربعة أولاد .. مريم واسماعيل ومحمد وتوفيق الحكيم . واعتبرها الطبيب واحدة من الممرضات ، لدرجة أنه قبل حصوله على

أجازته الأسبوعية كان يوصيها مداعبا : سأترك المستشفى أمانة فى عنقك !

وصارت زينب وأبيها جزءا من مستشفى المقاولون العرب ، وكان الأطباء يتسامرون مع الحكيم ويتناقشون معه فى كافة الموضوعات ، وأراد الحكيم أن يمارس حياته الطبيعية فحاول التمرد على تعليمات الأطباء الذين منعوه من وضع الملح على الطعام ، فيشكو لابنته أن تحضر له ملحاً من البيت ، ولكنها محافظة على صحته كانت تتحجج له فى كل مرة أنها نسيت ، حتى كف عن الشكوى ، واكتشفت أنه غافلها ذات مرة عندما تناولت معه الطعام بالمستشفى وأحضروا لها « الملاحة » على صينيتها ، فأخفاها الحكيم داخل ملابسه ، وظل يضع منها على طعامه الخالى من الملح ، دون أن يدرى أحد ، حتى ضبطته ابنته متلبسا فانتزعتها منه ، وقد تكرر مثل هذا الموقف أكثر من مرة ، حينما كان يأخذ الملاحة من على صينيتها ويشغلها بالكلام ، إلى أن استطاعت أن تنهى هذه اللعبة ، فكان يترك طعامه ويأكل طعامها ، ولما بدأت تعترض ، بدأ هو يطلب طعاما من خارج المستشفى ، ولما أحس الأطباء بتحسن صحته سمحوا له بممارسة حياته الطبيعية ، وتخليدا لذكرى وجود الحكيم بمستشفى المقاولون ، وضع اسمه على الجناح الذى كان يعالج به ، كما علقت صورته بجوار اسم « الجلالة » ، ورغم أن الحكيم خلال فترات مرضه المتقطعة قد دخل أكثر من مستشفى ، إلا أن حنينه إلى المستشفى الأول جعله يطلب أن يعود إليه ، ولكنه انزعج أشد الانزعاج عندما لم يجد اللوحة المشرفة باسم الجلالة ، فأتوا له بها ، صحيح أنها لم تكن نفس اللوحة ، ولكن الحكيم شعر بارتياح عند عودة اسم « الله » إلى حجرته بالمستشفى ، وظلت عينه معلقة عليه لمدة نصف ساعة ، وكأنه يناجى ربه فى صمت هذه المرة ، فقد تعلم الدرس من مناجاته المنشورة فى أحاديثه مع الله ، والتى أثارت عليه

ضجة بدأها الشيخ الشعراوى متهما إياه بالضلالة ، إلى أن دخل الحكيم المستشفى وأعلن رغبته فى أن يزوره الشيخ الشعراوى معللا ذلك بأنه رآه فى منامه ، ولما زاره الشيخ أخبره الحكيم أنه فى مناجاة دائمة مع الله فلم يعد له إلا هو .

فقال له الشيخ الشعراوى إنه لم يقرأ مقالاته فى الأهرام حرفيا لكن بعض الصحفيين الذين يثق فيهم نقل مضمونها إليه . وتصالح الشيخ والحكيم ، وصلى الشعراوى عنده وقتا فاجأه موعده ، وأهداه سجادة للصلاة ، وقالب طوب ليتيمم عليه حين لا يستطيع صحيا أن يتوضأ بالماء ، وخرج الحكيم من المستشفى ، ولكنه ظل على موعد معها بعد ذلك ، وكان طبيعيا أن تنشغل به ابنته طوال الوقت ، إلى درجة أن أبناءها حاولوا أن يلفتوها إليهم صراحة حينما قالوا لها : نحن أولادك » .

فتقول لهم :

أنا ممكن أنجب مريم أخرى واسماعيل جديد ومحمداً آخر ، لكننى لا يمكن أن أصنع أبا جديدا .. وغداً عندما تكبرون سوف تحسون بنفس الاحساس وهو أنكم لا يمكن أن تعوضوننى كأم لكنكم يمكنكم أن تعوضوا أولادكم .. وما لم أعطه لكم اليوم سأعطيه لكم غدا أو بعد غد .. فالحياة أما مكم ممتدة .. لكن جدكم إن لم أعطه اليوم فقد لا أجده غدا .. إنه الآن مكسبى فى الحياة .. لقد أعطانا ولم نعطه شيئا .. لقد تحملنا كثيرا بمشاكلنا ورغم ذلك فقد جعل نفسه المذنب فى النهاية » !

تحاول زينب أن تشعر أبناءها أن ما تقوم به نحو جدهم هو أقل واجب من الابنة نحو أبيها ، وأن ذلك لا يجعلهم يحسون إلا بكل الرضى فله ديون فى رقبتها كإبنته ، ومهما فعلت فلن ترد شيئا مما له عليها ، وهى محاولة من الأم لأن ترسم صورة مثالية لجدهم ليكونوا فى المستقبل على مثال تلك الصورة مع أبنائهم حينما يكبرون ويكون لهم أبناء ، فلا بأس

من محاولة تجميل صورة « الجد » من أجل هدف تربوى ، فليس مطلوباً التحدث عن رب الأسرة بمساوئه فذلك شيء غير مرغوب فيه ولا ضرورة له إلا تكريس الكراهية والأحقاد مما ليس له داع ، ثم إن الأم لا تجمل صورة أبيها أمام أحفاده بغير ظل من الحقيقة فقد تنبه إلى حقوق أبنائه ، صحيح أن ذلك جاء متأخراً ولكن يكفى أنه تنبه ، يكفى أنه اعترف بخطئه وأقر بذنبه ، ولكن ألم يكن يبدى رأيه فى أمور حياتها ولكنها كانت تتصرف برأيها هى ، فحينما كان الحكيم منعزلاً عن أبنائه كان يعاب ، وحين رفع جدران العزلة كان جزاؤه التمرد عليه فهل كان يعرف بذلك حينما عزل نفسه عن أولاده ؟ لقد كان رغم تحرره الفكرى والعقلى غير متحرر معهم ، فلم يداعب أحداً منهم أو يأخذه إلى فسحة فى حديقة ، أو يصحبه للترفيه بمشاهدة مسرحية أو فيلم ، بل حتى حينما كانت الأسرة تنتقل إلى المصيف فى الإسكندرية كان سجين طباعه ، فمن الصباح إلى ما بعد الظهر حتى الساعة الثانية كان يقضى الوقت مع أصحابه بقهوة « بترو » ثم يعود ليتناول غداءه ثم ينام بعض الوقت ليقوم وليتناول الشاى وحده فى شرفة المنزل « بالبلكونة » ويغرق فى تأملاته .

ورغم دخول التليفزيون فى مصر فى أوائل الستينات وكان من المنتظر أن يلتف أمامه الأبناء حول أبيهم ، كما يحدث فى كل البيوت التى فيها تليفزيون ، إلا أن الحكيم كان يفضل العزلة فى أغلب الأحيان جالساً أمام جهاز تليفزيون آخر غير الذى تشاهده الأسرة ، ولم يكن يجتمع معهم إلا إلى طعام أو حينما يجتمع الأبناء والأزواج والزوجات والأحفاد فكان وجوده بينهم رمزاً لسيد البيت الكبير ولكنه لم يشرك أحداً معه فى شيء من أموره خاصة أبناءه لأنه كان كتوماً ، ولأن فارق السن بينه وبينهم كان كبيراً لدخوله دنيا الزواج متأخراً ، فكان يرى أبناءه أقل مستوى من أن يجلس معهم أو يناقشهم ، كما أن الحاجز الذى نشأ بينه وبينهم بحكم عزلته مع

فنه لم يكن يشجعهم على أن يتحدثوا معه إلا فى القليل النادر ، فقد كانت أمهم تتكفل بكل شىء ، فأشعرتهم بالأمومة والأبوة فى وقت واحد ، مع فقدهم الشعور بأبوة الحكيم لهم ، وكذلك كان هو أيضا يشعر بذلك الشعور ، ولم يحاول أن يشعر نفسه أو يشعرهم بأبوته إلا فى مرحلة متأخرة بعد أن فات أوان حاجتهم إلى الأبوة ، وكانت العزلة التى فرضها الحكيم على نفسه قد انعكست على أبنائه فلا أحد يزورهم ولا هم يزورون أحداً فعاشوا فى عزلة اجتماعية عن الناس والمجتمع حتى عندما تجرأت ابنته زينب فى طفولتها وخرجت مع بنات خالتها إلى السينما غضب عليها والدها وضربها ، ورغم أن ضربه من النوع الخفيف الذى لا يسبب ألماً ، إلا أنه مجرد رمز لإشعارها بخطئها لأنها لم تصحب معها المربية ، ولكن الطفلة خاصمت والدها لمدة عشرة أيام ولم يتنبه لذلك إلا بعد أن لاحظ انزواءها عنه وعدم ظهورها أمامه كلما أراد أن يطمئن على تواجد جميع أفراد الأسرة . وأن لا أحداً قد غاب هنا أو هناك ، بمجرد اطمئنان على من يرتبطون به وأنه لم يشرد فرد منهم من قلعة أسرته المنعزلة ، وكان عجيباً أن يصالح الحكيم بنفسه طفلته التى خاصمته ، ويبدو أنها تعودت على ذلك حتى بعدما كبرت وصار لها أولاد .

ورغم حاجز الرهبة الذى كان بين الحكيم وأبنائه إلا أنه فى تلك المرات القليلة التى يدخل فيها طرفاً فى حوار أو مناقشة تتعلق بأمر من أمور أولاده كان يتبع معهم أسلوب ديمقراطية الحوار بلا يخيفهم أو يرهبهم أو يفرض عليهم رأياً بل يدع متحدثه يقول كل ما عنده ثم يدلى بنصيحته له ويترك له حرية الاختيار دون ضغط كما فعل مع ابنه اسماعيل الذى اختار طريق الموسيقى رغم رغبة والده ليكون مهندساً ، وكما فعلت ابنته زينب فى حياتها ، ومع ذلك فهو لم يعطها الإحساس بأنها أخطأت ، ويجب أن تتحمل مسئوليتها وحدها ، بل إنه تحمل معها مسئولية فشل زواجها ، وما

ترتب على وفاة زوجها الآخر ، من مشاكل ، ومع ذلك لم يكن يحب أن يجبرها على شئ يراه هو صحيحا وأنسب لها من أى شيء آخر ، حدث مثل ذلك بعد حصول زينب على الثانوية العامة بتفوق ورأت أمها أن تقدم ابنتها أوراقها إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، رغم رغبة زينب فى دخول كلية الآداب ، ولكنها أطاعت أمها ، وعندما علم أباها بالمجموع الكبير الذى حصلت عليه فى الثانوية العامة قال لها : لم أكن أعرف إنك شاطرة إلى هذا الحد .. أصل انت دحيحة » ! ولم ينصحها بدخول الآداب ، ولكن زينب لم تستطع الاستمرار بكلية الاقتصاد التى لم تكن مقنعة بها ، فتقدمت إلى كلية الآداب قسم فرنساوى ، ووجد ذلك الاختيار ، ارتياحاً لدى والدها الذى بشرها بأنها سوف تنجح وتتفوق ماد امت قد اختارت الدراسة التى توافق رغبتها ، وشجعها إلى درجة أنه كان يأتى لها بالكتب الفرنسية من باريس ، وكان يأخذ أبحاثها ليعرضها على المختصين ، وكانت لديه رغبته فى أن تستكمل دراساتها العليا ، ولكن حينما تعارض ذلك مع حاجة بيتها وأسرتها - وكانت قد تزوجت - وقف إلى جانب زوجها فى أن البيت أولى وأحق بالرعاية .

ومن الغريب أن الحكيم هو نفسه الذى كان يحث ابنته على العمل وكان يقول لها بعد أن استقر بها المقام بجواره فى القاهرة : إنه لا توجد سيدة مثلهاتجلس فى البيت مضيعة حياتها بين جدرانه ، وإلا فما فائدة الشهادات التى حصلت عليها .. هل كان ذلك من أجل وضعها فى الدولاب ؟!. ويضرب لها مثالاً بمن حولها ، ويقول لها أنها أفضل منهن بكثير ، وأنها بعملها ستكون شيئا ذا قيمة .

ولكن عندما تأتى زينب لتضع النقط فوق الحروف ، وتستعرض مع والدها أنواع العمل الذى يصلح لها ، يتردد الحكيم ويتراجع ويأتى لها بقصاصات عمود « مجرد رأى » بصحيفة الأهرام ، والذى قاد فيه كاتبه

الصحفى صلاح منتصر حملة يرجح فيها أسباب عودة المرأة إلى البيت ، فتسأل زينب والدها: إذن ولماذا يشجعها على العمل؟، ومن غير أن يجيب تفهم أنه يريد ألا تأتى يوماً له تطلب العمل خارج البيت ، إنه يحثها على العمل رغم أنه يعلم تماماً أنها فى هذه الفترة بالذات من حياتها لا تستطيع أن تترك أولادها ، ولكنها تجارى والدها فتبدى استعدادها للعمل .. وهنا يسقط فى يده فيضع أمامها مائة سبب وسبب يرجح وجودها فى البيت على عملها خارجه ، فهى لو خرجت للعمل فستحتاج إلى مربية ، والمربية إن أعطت الأولاد طعاماً وشراباً فإنها لن تعطيهم الاهتمام والحب والحنان الذى لا تعطيه إلا الأم التى إن انشغلت بعملها فلن يكون لديها وقت تعطيه لأولادها ، فستعود بعد الظهر منهكة القوى .. فمن يتابع الأولاد فى مذاكرتهم ويوجههم فى حياتهم ؟. ويتابع الحكيم نصائحه لابنته مبينا لها أضرار خروجها إلى العمل : فستغيب ابنتك عنك وستقع فى أخطاء لبعدك عنها .. والولد ربما يقع مع أولاد السوء فيشرب سجائر .. ثم من يذاكر للأولاد ويتابع تقدمهم أو تأخرهم فى الدراسة .. إنهم بحاجة إلى تواجدك المستمر معهم خاصة أن لديك فتاة فى سن المراهقة وولداً على أبواب الدخول فى هذه السن .. ولديك طفل يحتاج إلى رعايتك وحنانك .. فلمن تتركينهم » ؟

كانت معارضة الحكيم إذن لابنته زينب فى أن تعمل ليست معارضة لفكرة العمل فى حد ذاتها وإنما لفكرة أن العمل لا يتناسب مع كونها أماً ، فما يحتاجه العمل من جهدها ووقتها يحتاجه أولادها ، أما حينما لم تكن زينب مشغولة سوى بنفسها فإنه لم يمانع فى عملها وإن كان قد تردد فى البداية ، مثلما حدث عندما كانت طالبة فى كلية الاقتصاد قبل أن تتركها إلى الآداب ، حيث كانت تعمل فى أجازة نصف السنة بأحد أجنحة معرض القاهرة الدولى للكتاب ، صحيح أن الحكيم اعترض فى أول الأمر لأنه

فوجئ بابنته تعود فى الساعة التاسعة مساء فقال لها عندما اكتشف تأخرها فى العودة إلى البيت : « الله .. الله .. راجعة الآن فقط فى هذا الوقت .. كنت فين ؟ » ، فتقول له : إنها تعمل بمعرض الكتاب » ، فيقول لها مستنكراً : معارض إيه التى تجعلك تغيبين عن البيت طول النهار وتختلطين مع الجمهور وناس لا تعرفينهم »

وتحاول الأم التى كانت تقرر كل شئ مع أولادها ، أن تقنعه بأن عمل ابنتها فى المعرض هو عمل محترم لا يسبب لها أى إحراج أو متاعب وهى مجرد أيام ينتهى بعدها المعرض » ، ولا يطمئن الحكيم إلا أن يتأكد بنفسه ، فيذهب إلى معرض الكتاب مصطحباً معه صديقه د . حسين فوزى ، فتفاجأ زينب بأنهم يرحبون من خلال المكروفونات بالكاتب الكبير توفيق الحكيم ، وينوهون من وقت لآخر بوجوده ، ولم يكن الحكيم يقصد زيارة المعرض ولكنه كان يريد الاطمئنان على طبيعة عمل ابنته فزارها فى الجناح الذى تقف فيه وهى تتعامل مع الكتب ويتعامل معها الجمهور بما يليق بالمتعاملين مع الكتب من أخلاق ، ولم يجد الحكيم بأساً من استمرار ابنته فى عملها بالمعرض ، ونظر إلى صديقه د . حسين فوزى ليلفته إلى زينب مشيرا إليها قائلا « هذه إبنتى » .

ولم يكن قلق الحكيم على عمل ابنته إلا لأنه كان يعرف طبيعة شطحاتها ، فهى لا تختار أعمالاً تقليدية أو هوايات تقليدية ، أو كما يقول لها « أنت لا تخطين ولكنك تقفزين ، لأنها فى بداية دخولها الجامعة أرادت أن تتعلم « فن الرقص ، وكانت تذهب للفرجة بمسرح البالون ، وتسعى للعمل بفرقة رضا للفنون الشعبية ، مما أصاب الحكيم بحالة من الرعب والفزع جعلته يقول « ابنتى تطلع راقصة ؟ وسمعتى »! » ، ويطلب من أمها لقربها منها أن تلفت نظرها إلى أن هذا عبث ، ويجب أن تلتفت لدروسها بدلاً من هذا الكلام الفارغ الذى سوف يجعلها تزوغ من

محاضراتها .. ألا يكفى أن الولد إسماعيل سكتنا له على المزيكا .. البنت أيضا .. وإيه راقصة » ؟!

ولذلك كان الحكيم متعجلاً لإتمام زواج ابنته ، ولم يعن هذا أن يوافق على زواجها أى زيجة والسلام تخلصاً من شطحاتها المزعجة له ، فجاء زواجها - إلى جانب دراستها التى لم تكن قد انتهت منها بعد - لتنشغل بأولادها ، ومع وجودهم الذى أضاف إلى حياتها أعباء جديدة ، لم يعد هناك مايدعوها للتفكير فى العمل لغيرهم ، وقد شعر الحكيم بأهمية وجود المرأة فى البيت ، مع وجود إبنته مع أبنائها ، وزمان كان من أنصار المرأة للبيت والبيت للمرأة لأنه كما يقول : « الأم هى الحقيقة الكبرى فى تركيب المرأة ، وبهذه العاطفة وحدها تتسلط على كل الكائنات » ، كانت القضية نظرية بالنسبة للحكيم ، أما الآن وهو يرى أهمية ابنته فى الحفاظ على كيان أسرتها وبيتها (ومن قبلها أمها التى حملت عنه عبء البيت والأولاد وإن لم يكن متنبها ليدرك ذلك لانشغاله) فقد انتقل اقتناعه النظرى إلى اقتناع عملى بعد أن رأى وشاهد وعاين ، باندماجه مع إبنته وأولادها ، إنهم لا يستطيعون أن يتناولوا طعاماً إلا فى وجودها ، وكان الحكيم يرى أنهم فى حاجة إلى تجربتها وتوجيهاتها حتى لا يقعوا فى أخطاء فى حياتهم ، فالولد إسماعيل يأتى من مدرسته متلهفاً على أمه يأتيها صوته من الأسانسير « مامى » ، والبنت مريم فى بحاجة لإرشادات أمها وهى فى هذه السن الحرجة .. سن المراهقة .. حيث تسأل الإبنة ، وأمها تجيبها وتحدثها بالساعات عن حياتها وما بها من أخطاء كى تتجنبها ولا تقع فيها .

لقد رأى الحكيم بالتجربة .. الأهمية الحيوية لوجود الأم فى بيتها مع أولادها ذلك الوجود الذى لا تغنى عنه جدة أو شغالة ، لم يكن الحكيم قد مر بهذه التجربة من قبل لانشغاله فى عالمه الخاص أما الآن فإنه يعيش

التجربة كاملة مع إبنته وهو فى أخريات عمره بعد أن تخفف كثيرا من أعباء أوراقه وقلمه .

* * *

وإذا كان الحكيم كالحاضر الغائب غالبا ، فى أمور أسرته التى انفرط عقدها بوفاة الزوجة والإبن ، إلا أنه كان حاضراً دائما فى أمور أسرته الجديدة المكونة من إبنته وأولادها ، وكان حضوره سببا فى حدوث احتكاكات وخلافات ، فقد راح يتدخل فى شئون إبنته بصورة متزايدة ، فله وجهة نظر فى نوع ولون ملابسها ، وطريقة تصفيفها لشعرها ، بل وطريقة صلاتها ، وإن كان الأخطر عنده هو استمرارها فى التدخين ، فهو لا يل ينصحها بالامتناع عن السيجارة لأن نتيجتها إصابتها بالسل الرئوى وسرطان الرئة ، ويدلل على صحة كلامه بقصاصات الصحف التى تتحدث عن أضرار التدخين ، ويحثها على قراءة ما تضمنته الحملة الجديدةالتى يقودها الكاتب الصحفى صلاح منتصر ضد التدخين .. الخ ، فقد خشى الحكيم أن يسوء مصير إبنته بغرقها فى التدخين ، كما ساء مصير إبنه عندما غرق فى الخمر ، ولكن محاولاته مع إبنته كانت كالحرث فى الماء ، فأراد أن يحاول مرة أخرى ولكن بشكل عملى قوامه الحافز والإغراء ، فوعدها إن امتنعت عن التدخين فسيكافئها مكافأة كبرى ، وطمعا فى المكافأة وشوقا إليها تظاهرت زينب بالامتناع عن التدخين أمام والدها ، وإن لم تمتنع من ورائه ، واستمرت على هذا الحال شهرين وثلاثة إلى أن اطمأن الحكيم بأنه لم يعد يراها تدخن ، فأعطاها ألفا من الجنيهات ، وحتى تظل محافظة على ثقة الحكيم لم تعد تدخن على الأقل أمامه ، ولكنها كانت تشعر بقيد يمنعها من حريتها فى التدخين ، لأن والدها معها أغلب الوقت جالسا فى البيت ، وإن كانت تحاول أن تختلى بنفسها فى

حجرتها بعض الوقت لكى يمكنها أن تشعل سيجارة ، وكان ذلك غالبا ما يكون فى وقت تتظاهر فيه بالرغبة فى الراحة أو الاسترخاء على سريرها ، حتى فوجئت ذات يوم بخطوات الحكيم ودقات عصاه تتجه نحو حجرتها ، والسيجارة فى يدها ، فقامت بإخفائها بسرعة تحت اللحاف ، حتى لا يكتشف أمرها ، وكان عادة ما يأتى إليها كلما دخلت إلى حجرتها ليطمئن عليها وهو واقف على الباب ، ليتبادل معها كلمة أو كلمتين ثم يمضى ، ولكنه هذه المرة دخل وجلس ، فاضطرت لاستخدام سلاح العطس الذى يخشاه الحكيم ويخافه ، فافتعلت ، « العطس » ، ليقوم الحكيم على إثره موليا وجهه خارج حجرة زينب حتى لا تصيبه العدوى ، ولكن الحكيم كان قد أحس بسر زينب مع سيجارتها ، فقد كان يلاحظ قلقها ويراقب عدم ارتياحها بعد فراغها من الطعام بينما هى محرجة من ترك والدها أثناء اشتباكه معها فى أحاديث مختلفة لم يكن يحلو له إثارتها إلا حين الجلوس على مائدة الطعام حيث يمكن للحوار أن يمتد إلى ثلاث وأربع ساعات ، وتكاد زينب أن تموت أمام رغبتها الجارفة لإشعال سيجارة بعد تناولها الطعام ، فاستأذنته ذات مرة لقضاء حاجتها بعد أن استطال الحديث وحمى وطيسه ولم يعد هناك أمل قريب لزينب فى إنهائه ، ففوجئت بوالدها يطلب منها الجلوس ، وقال لها : لا داعى للانصراف .. اجلسى ودخنى .. ألم تحصلى على الألف جنيه ؟!

* * *

وعندما يرى الحكيم ابنته كاشفة شعر رأسها يقول لها : ألم تكونى متحجبة .. خلعت الحجاب ليه ؟ فتقول له : من كثرة سخرية حضرتك من المحجبات » ، فينفى ذلك ويقول : لا . لا .. أنا لم أقل لك اخلعى الحجاب ، فتقول له : أنا أنوى ارتداءه حينما أقتنع تماماً لأننى مترددة ،

فيقول لها : ارتدى الحجاب ولا داعى للتردد . ، وحين تستعد للصلاة يجدها ترتدى فستاناً وتحته بنطلون ، فيقول لها : ولماذا البنطلون مادام الفستان طويلاً ؟ فتقول له : لأن فى الفستان فتحة فى أسفله تبين قدمى .. فيقول لها ساخراً : هو يعنى ربنا سيترك الكون كله ولا يشغله غير فتحة فستانك ؟! وعندما تلبس البيجاما لتخفى بها كل جسدها أثناء الصلاة ، يلاحظ الحكيم أن البيجاما تكاد تتفتق لضيقها مما يحدد ملامح جسد زينب فيقول لها : ما هذا .. ترتدين بيجاما ضيقة لإغراء من ؟!.....؟!

وحين تدخل فى صلاتها ويقبل عليها طفلها « محمد » يداعبها ، فتتضايق لأنه يعطلها عن مواصلة صلاتها ، فيقول لها الحكيم : دعيه يلعب .. إنه يفعل معك كما كان يفعل الحسن والحسين مع جدهما الرسول ﷺ حينما كانا يمتطيان ظهره فلا يتحرك من سجوده قبل أن يتركانه حتى لا يزعجهما .

ومن هذا الفهم والحرص على مشاعر الأطفال استسلم الحكيم لحفيديه إسماعيل ومريم لعله يعوض معهما ما حرم منه أبناءه فى طفولتهما ، فقد طلبت مريم من جدها أن تصفف له شعره بمعاونة أخيها إسماعيل ، وراحت تصنع له مفرقا فى رأسه يقسم شعره قسمين عن يمين وعن شمال ، وراحت تضفر ما استطاعت من خصلات شعر جدها وتضع فيه « توكات » كانت تخبئها ، ولم تكتف بذلك ، بل قامت بتصفيف شاربه إلى أعلى !. ولم يعترض الحكيم بل طاوعها لتمسكه من يده هى وأخيها ليقتاد انه إلى حجرة والدتهما التى فوجئت مذهولة بهذا المشهد العجيب .

لذلك كان الحكيم ينصح إبنته ألا تزعج طفلها محمداً وهو يداعبها أثناء صلاتها .

وهكذا كان فراغ الحكيم لإبنته وأحفاده ، يجعله يتدخل دائماً فى

شئونهم ، مرة بالسخرية ، ومرة أخرى بالنصيحة ، ومرة ثالثة بالثورة عليها ، حتى قالت له ذات مرة :

يابابا حتى لو كنت زوجى لم تكن ستعاملنى هذه المعاملة .

فقال لها : أنا أكثر من زوجك فلى السلطة الكاملة عليك » .

ورغم ضيق زينب بتدخلات والدها فى تفاصيل حياتها إلى درجة الثورة عليها فى بعض الأحيان ، ألا أنها كانت تلتزم الصمت إلى أن ينتهى من إعطائها دروساً يؤنبها فيها أو يلومها على ما يرى أنها أخطأت فيه ، فتتحمل كاظمة غيظها ، حتى ينتهى من كلامه ، فتخرج بعيداً عن المكان الذى هو فيه ، لتعبر عن غضبها من والدها دون أن تسميه وإنما تكنى عنه بلفظة « أنتم » ، فهى لا تستطيع أبدا أن ترفع صوتها أمامه ، أو تواجهه صراحة وهى تتحدث بغضب وانفعال .

منتهى الاحترام .

ولا يستطيع الحكيم أن يجعل ابنته تظل غاضبة منه لأكثر من عشر دقائق ، فيذهب إليها بحجة أنه يريد شيئا من حجرتها ، بينما هو لا يريد شيئا سوى مصالحتها ، فيسألها عما تفعل ، ثم يجلس بجوارها على سريرها ، الذى كان كلما جلس عليه لمشاهدة التليفزيون ، وقع لعدم وجود مسند له ، فتسارع إلى انقاذه وشده إليها بعصاه ، رغم تحذيرها له فى كل مرة أن السرير لا ظهر له ، ويفتح الحكيم حواراً مع إبنته ، وإذا لم يذهب إليها يناديها وكأن شيئا لم يحدث ، أو يحاول إقناعها بوجهة نظره فيما أثار غضبها ، وفى النهاية تجد زينب أنها كانت مخطئة ، وتقتنع بصواب رأى أبيها فى أغلب الأحوال ، وإن أتى ذلك متأخرا .

ولا يريد الحكيم أن ينتهى حواره مع ابنته حتى عندما يأوى كلاهما إلى سريره ، فالحجرتين متقابلتين ، ومن تحت اللحاف ينادى الحكيم ابنته ، بينما هى مستدفئة على سريرها تشاهد التليفزيون ، فتطلب منه أن يجىء

هو ، فيقول لها إنه يريدها فى شئ مهم . فتسأله ما هو ؟ فيخبرها أنه لن يقول لها عليه إلا حينما تأتيه ، فتقول له بل إنها هى التى تريده فى شئ أهم ، ويتبادلان الحوار عبر الحجرتين من خلال سريريهما ويحاول كل منهما أن يجذب الآخر إليه للجلوس والحوار معه .

وقد أدرك الحكيم طبيعة إبنته واعتدادها بنفسها ، فلم يعد يلجأ للأسلوب المباشر لتنبيهها لخطأ يراه ، أو توجيه نصيحة بشأنها أوبشأن أولادها مما يمكن أن يحدث احتكاكاً يؤدى إلى إثارتها وغضبها ، وإنما كان يستخدم موهبته القصصية فى تأليف قصة من خياله ينتهى منها إلى العبرة أو الغرض الذى يريد أن يصل إليه ، فتفهم إبنته مقصده سواء كان نصيحة أو نقداً أو توجيهاً .

وكم كان الحكيم يسعد حينما يدخل على زينب ويجد كتباً بجوارها ، وكم كان يصدم حينما يعرف أن وجود هذه الكتب لا يعنى فى كل الأحوال أنها كانت تقرأ ، ولكنه اكتشف أن لها اهتمامات أدبية أكبر مما كان يظن ، فهى تناقشه بل وتنتقد مؤلفاته ، وهو يستمع ولا يضيق بالنقد ، فصدره رحب لتقبل الرأى الآخر ، فتقول له مثلاً إن بعض أفكاره فى بعض كتبه معادة وهذه الفكرة أو تلك نقلها عن الكاتب الأجنبى الفلانى ، وذات مرة قالت زينب لوالدها : إنها ستعد دراسة عن الزمن عند « سارتر » ، فيطلب منها أن تعد دراستها عن الزمن عنده لأنه سبق « سارتر » ، ولكنهاتكون مقتنعة بأن سارتر هو الأسبق عن الحكيم ، ورغم أنها لن تعد دراسة ولا شيئاً إلاأنه حوار يدور بينها وبين والدها كأنها تريد أن تؤكد له أن نشأتها فى بيت « المفكر الكبير » لم تضع سدى وأنه قد أثمر ثماره فى قدرتها على مناقشته ، بل ومعارضته ونقده ، ورغم أن هذه المناقشات الأدبية كانت تحدث مرة كل أسبوع تقريباً إلا أن المناسبات كانت تفرض

نفسها من طبيعة الحياة ذاتها وتفجر مناقشات بين الحكيم وابنته حول قضايا سياسية واجتماعية ودينية واقتصادية .

* * *

فعلى مائدة الطعام تأتى سيرة الأسعار النارية الملتهبة .. فهذه « البامية » التى يأكل منها الحكيم تقول له زينب « تصدق يابابا الكيلو منها بسبعة جنيهات » ! فيذهل وتتوقف اللقمة ، فى يده أو فى حلقه حسبما يكون موضعها ويسأل فى دهشة عن السبب « ليه يعنى ؟ » فتخبره ابنته : لأن البامية فى بداية ظهورها .. فيقول الحكيم : ولو ... ويكون حديث « البامية » غالية الثمن ذات الجنيهات السبعة مدخلا لمناقشة اقتصادية يحلل فيها اقتصاد البلد ويقارن بين زمان والآن وكيف أن هذه الجنيهات السبعة كانت تفتح لصاحبها بيتاً وتكفل معيشة أسرة شهراً .. فما الذى أوصلنا الآن إلى هذا الوضع الذى كان سبباً فى جنون الأسعار التى لا ضابط لها ولا رابط ؟. إنه سوء التخطيط فى التعليم وفى توزيع الخريجين ، فالجامعات كل عام تخرج آلافا ينتظرون خطابات القوى العاملة لتعيينهم موظفين ، ومع كثرتهم لا يجدون لهم مكاتب ، ثم إنهم لا ينتجون لأن عمل الواحد منهم يؤديه عشرة .. إذن فكان يجب على الدولة أن تعرف احتياجاتها ، وتخطط لنظام التعليم على أساس هذه الاحتياجات .. وأن تتجه بالخريجين لها لا إلى المكاتب ولكن إلى الصحراء لاستصلاحها .. ولكن مادامت الجامعات تقوم بتخريج موظفين يتقاضون مرتبات على أعمال لا يقومون بها فسوف تزداد ديون الدولة .. فتضطر لرفع الأسعار ..

وبالتالى تزداد ديون الموظفين أيضاً لأن مرتباتهم لا تتوازى مع الغلاء .. فلم تعد الوظيفة الميرى مغرية مثل زمان حينما كان يقال « إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » ، فقد صارت أجرة الشغالة أكبر من مرتب

الموظف وأستاذ الجامعة بل أكبر من معاش الحكيم نفسه الذى هو أكبر مفكر فى مصر والوطن العربى ، وقد جرب الحكيم أن يأتى بشغالة فراحت تفرض عليه شروطها ، إنها تريد أن تحضر يومين فى الأسبوع وأن تأخذ أجرها مقدما حتى تستطيع أن تذهب إلى الفيوم لتدفع لإبنها الذى يعيش هناك ثمن الدروس الخصوصية التى يأخذها ، حيث أنه فى الثانوية العامة ويريد الحصول على مجموع يؤهله لدخول الجامعة ، ويرى الحكيم « أن الحكومة قد أفسدت التعليم ووقعت فى تناقض مع نفسها حينماتطلب من الطالب أن يحصل على ٧٠ و ٨٠ و ٩٠ ٪ ليدخل الكلية التى يريدها دون اعتبار للقدرات والمواهب والميول ، مما يجعل الطالب يلجأ للدروس الخصوصية وبذلك لم يعد التعليم مجانيا كما يقول شعار الدولة الذى ترفعه ، إنه شعار كاذب ، فلا توجد مجانية .. يجب على الدولة أن تعترف بهذا .. وألا تخدع نفسها بمبدأ كاذب ينقضه الواقع ، ولكنه الكذب الذى أصبح عملة سائدة فى السوق فلم نعد نقول شيئاً صادقاً أبداً ، وعلى الدولة إن أرادت إصلاحاً للتعليم أن تعترف بشجاعة أنه لم تعد توجد مجانية وأن تعود بالتعليم كماكان من قبل بمصروفات ، ولكنه كان تعليما مضبوطاً .. أخرجت لنا المرحلة الابتدائية منه .. العقاد ، أما التعليم الآن فلم أعد أثق فيه ولا فى كلياته أو معاهده .. التى تلقى بخريجيها للقوى العاملة لتوزعهم دون خطة أو تقدير لاحتياجات البلد .. ومن يوم ما أصبح عندنا كلية اسمها كلية الإعلام لم يتخرج منها إعلامى ناجح .. كان زمان يكفى لمن يريد العمل فى مجال الإعلام أن يكون موهوباً ويعمل مع إعلامى قديم « يشرب منه الصنعة » كما يقولون .

والتعليم المجانى الذى ينتقده الحكيم لتحوله عن هدفه ومضمونه بانتشار الدروس الخصوصية هو الذى دعا الشغالة التى أتت للحكيم أن تطلب منه مائتى جنيه مقدما فى الشهر ليومين فقط فى الأسبوع تقضيهما

لخدمته ، كى تتمكن من السفر لابنها وتسديد ثمن دروسه الخصوصية ، ولكنها مجاملة للحكيم لن تأخذ منه سوى مائة وخمسون جنيها فقط لأن المحروس ابنها رآه فى التليفزيون ، هكذا قالت الشغالة لتوفيق الحكيم الذى دهش لهذا التطور العجيب الذى حدث فى المجتمع ، وراح يتحدث إلى صديقه ثروت أباظه .. فى التليفون : تخيل الشغالة النهاردة تتقاضى ١٥٠ و ٢٠٠ جنيه !، يتعجب الحكيم لأن مثل هذا المبلغ أكبر من معاشه وهو شيخ المفكرين ، ولكن لماذا العجب ؟ لقد تغير الزمن وانقلب المجتمع الذى أصبحت فيه الشغالات يعلون مكانا ماديا متقدما فى سلمه الهرمى ، وجاء الزمن الذى أصبحت فيه الشغالات موضوعا لنقاش بين كبير الكتاب العرب وصديقه الروائى الأديب يوسف جوهر ، حينما جلسا ذات يوم أمام شاشة التليفزيون ، فشاهدا ، « مذيعة » تجرى حواراً فى الطريق مع فتاة (لمضة) تجيد التعبير بالعين والحاجب (توقعا) أن تكون ممثلة صاعدة .. اتضح أنهاشغالة (فقال يوسف جوهر) أتوقع أن تصل هذه الفتاة الفصيحة إلى مقاعد مجلس الشعب .. هناك نسبة خمسين فى المائة للعمال والفلاحين !

(قال الحكيم) لا يبدو عليها أنها عبيطة لتفعل ذلك .. ستقارن بين مكافأة المجلس ومكافأة الخدمة فى البيوت ..

(وأضاف الحكيم ضاحكاً) لا تنسى أن المجلس لن يقدم لها طعاماً أو بدل طعام .. أما فى البيت فإن ربة البيت تحرص على رضاها وتسألها متوددة .. ماذا تفضل فى فطورها ، وهل تحب البيض مقلياً أم مسلوقاً .. أم برشت .. أم عجة بالخضروات .

(قال يوسف جوهر جادا) : آخر شغالة وفدت علينا اشترطت أن تجرب العمل بضعة أيام .. وتأففت عندما رأت سخان البيت معطلاً .. وتبين أنها موسوعية ومغرمة بالدراسات المقارنة .. تعرف أن الفلبينية

تتقاضى نصف مرتبها بالدولار ، ونصفه بالعملة التعبانة ، وأن الخادمة فى بلاد برة تجلس إلى المائدة مع الأسرة وأن غرفتها مزودة بتليفزيون خاص ، وتستطيع أن تدعو خطيبها فى وقت راحتها ليلعب معها الكوتشينة ، ولم تعد الموسوعية فى اليوم التالى .. الأمر الذى يقطع أننا - أنا وزوجتى والعيال - لم نعجبها ولم ننجح فى كشف الهيئة .

(قال الحكيم) : احمد ربك أنها لم تعرف ما نتقاضاه عن مقالاتنا .. لو عرفت لسقطنا من عينيها .. وربما وضعت مبلغاً فى مظروف وتركته على حافة حوض الغسيل على سبيل المساعدة ، (قال يوسف جوهر) قيادة الرأى العام صارت أقل ثمناً وجدوى من قيادة المطبخ .. زمان كانت تعتبر فضيحة اجتماعية أن يتزوج شاب وابن ناس .. شغالة ، الآن حسب نظرية النشوء والارتقاء سيكون عادياً أن يتزوج المثقف شغالة للمحافظة على مظهره الاجتماعى .. وستنظر فى أمر صعوده إلى طبقتها .. ربما تقبل وربما ترفض . (قال الحكيم ضاحكاً) : وربما تكثر حالات تعدد الزوجات .. يتزوج حامل الدكتوراه الذى تمنحه الدكتوراة علاوة عشر جنيهات ، من اثنتين .. واحدة للضروريات المادية وواحدة للحياة الزوجية ، وأنا نائب فى الأرياف كان القاضى يتزوج من بنت العمدة وهى لا تعرف الألف من كوز الذرة ، لأن دخل الأطيان يساعده على إقامة المآدب للمدير والحمكدار والحكيمباشى » .

ويعجب الحكيم أيضاً من أن الشغالة لا تحب من يسميها « خادمة » - ويقول - مع أن فى الشرع يقال « سيد القوم خادمهم » ، وأن النبى ﷺ كان يذكر كلمة « الخادم » موصياً به خيراً ، كذلك فالموظف فى البلاد الأجنبية يسمى « خادم الدولة » ، ولكن « الخدم » عندنا لا تعجبهم الكلمة فيغيرونها من باب المدنية والتطور إلى « شغال » أو شغالة .

ورغم أن الحكيم فى الثمانينات من عمره إلا أن مستقبل بلاده يشغله حتى فى طعامه وشرابه حتى عندما يرى أى شوائب فى السكر .

يقول : ما الذى جرى لمصر ؟ وتهزه المفارقات العجيبة فى المجتمع واختلال الهرم الاجتماعى فيتساءل : كيف تسير البلد وإلى أى شىء سوف تصل ؟

فتسمع ابنته زينب تساؤلاته ، وتحاول أن تخفف من همومه وانشغاله بالغد الذى لن يكون موجوداً فيه ، فتقول له : يابابا انت مزعل نفسك ليه بالمستقبل الذى أنت مشغول به .. إنه ليس مشكلتك ولا حتى مشكلتى وإنما هو مشكلة أولادى .. أحفادك .. وعليهم أن يواجهوه ويحلوا مشاكله .. فما شأنك أنت ولماذا تشغل نفسك بمستقبل هو لغيرك ؟

فيقول الحكيم ولم يعجبه كلام ابنته : هذه هى المشكلة .. كل واحد يعيش لنفسه فقط .. كل واحد يفكر لنفسه فقط ولا يفكر مع غيره أو لغيره ، لأن الذى يحدث عندنا حتى الآن هو أنه إذا اجتهدت فى بناء الطابق الأول وانتظرت أن يأتى آخر فيضيف إليه طابقاً آخر وجدت الذى جاء قد ترك طابقك كما هو إن لم يكن يهدمه ويبنى هو بناء آخر مستقلاً فى مكان آخر باسم آخر .. وذلك لأننا لا نعرف غير النظرة الشخصية الانفرادية ، ولهذا فإن طبيعتنا تشبه طبيعة الصراصير التى تسير وتعمل كل منها على انفراد ، أما النمل فيعمل بطريقة جماعية فى طوابير وجماعات وبذلك يستطيع أن يحمل حشرة أو غذاء أكبر منه حجما وقوة ، أما الصرصار فلا يستطيع أن يحمل شيئا لأنه منفرد بنفسه . هكذا مجتمعنا اليوم « مجتمع صراصير » .. كل فرد يعتبر نفسه لا شئ قبله ولا شئ بعده .. كل فرد يعتبر نفسه مجتمعاً قائماً بذاته .. لذلك انتشرت السلبية واللامبالاة .. كل واحد يقول « وأنا مالى » .. مليش دعوة .. « هو أنا

الذى سأصلح الكون » .. ومادامت هذه الروح الأنانية تركبنا فلن نحل مشكلة واحدة من مشاكلنا .. يعنى يبقى انتهينا .

ورغم أن الحكيم يشعر بأنه كمن يؤذن فى « مالطة » التى تبنى فيها المساجد ويرفع الآذان دون أن يوجد بها مسلمون يلبون ، أو كمن « ينفخ فى قربة مقطوعة » يذهب كل جهد فيها هباء ، أو كما يشبه الحكيم نفسه « بالبوسطجى » .. ساعى البريد .. الذى يحمل رسالة ويدق على الأبواب ويصيح « بوستة » .. فيسمع من يقول له : اللى فى البيت عزلوا ولا نعرف عنوانهم .. رح لحالك من فضلك وكفاية دق على الأبواب وجعت لنا دماغنا !

ورغم أن الحكيم يشعر زمنيا على الأقل أنه أشبه بأبطال مسرحية « أهل الكهف » الذين وجدوا عالماً غريباً عليهم لا يستطيعون مجاراته أو التواؤم معه أو العيش فيه ، فقد انتهى عصرهم وليس أمامهم من اختيار سوى العودة إلى « المتحف » .. فإن الحكيم يعتبر نفسه طالما أنه محسوب على الأحياء ، فهو مكلف أن يعيش لمجتمعه حتى آخر نفس من أنفاس حياته ، فتشغله هموم الوطن والمواطن .. لأنه كشخص .. كإنسان .. لم يعد له مطمع أو مطمح فى الحياة فقد أعطاها وأعطته ولكنه كمفكر عظيم لا يمكن له أن يبخل بفكره على بلده حتى يتوقف فكره عن النبض .. ليس المهم أن يقطف ثمار فكرة يزرعها .. يكفيه أن يقطفها أبناؤه أو أحفاده .. وهو يرى أن مشكلة الأبناء والأحفاد التى تؤرقه هى « الديون » .

تداعبه إبنته زينب وتسأله : وكيف نسدد ديوننا يابابا ؟

ولم يشأ الحكيم أن يجيب فى البداية وراح يختبر فكر جيل ابنته .. أليس هو الجيل الذى عليه أن يفكر ويتحمل مسئوليته ؟ .. فأعاد الحكيم عليها

نفس سؤالها ، فأرادت استفزازه فقالت له ساخرة وقد ظهرت على ملامحها ما يظهر على وجه المرأة حين تمكر : إيه رأيك يابابا لو نسمح بقاعدة « أمريكانى » مقابل ما نحصل عليه لنسدد ديوننا !

فقال الحكيم منزعجاً : انت عايزة تبيعى بلدك ؟

قالت زينب متخابثة : أصل المسألة تكون « دكاكينى » فى السر يعنى .

فقال الحكيم وقد علت نبرته : كيف تفكرين وبأى منطق تتكلمين .. أتريدين للاستعمار أن يعود من جديد مثل زمان ؟

قالت زينب : هل تظن أن استعمار اليوم مثل استعمار الأمس يأتى ليقعد لنا .

فغضب الحكيم من هذا الفكر المدمر وانزعج من أن يوجد فى المجتمع بل فى بيته من يفكر فى هذا الجيل بهذا اليأس والضياع ، وقال لابنته منهيا المناقشة : يبدو أنه قد أصابك مس من الجنون . والتزم الصمت ، ولكن زينب عادت لمعاكسته من جديد وقد اطمأنت إلى أن عقل شيخ المفكرين لم يمسه الوهن أو الضعف أو يعتل كجسده ،

فقالت : مادام لا يعجبك رأيى فقل لى أنت كيف نسدد ديوننا ؟

قال الحكيم : بالانتاج

قالت الابنة وقد عادت لسابق مكرها : الانتاج ؟ هه موت ياحمار ! فيقول الحكيم ولم يفقد الأمل : وإيه يعنى .. موت ياحمار حتى نسدد ديوننا .. ننتج ونتوسع فى الصحراء ونفعل مثلما فعل السلطان قابوس فى سلطنة « عمان » .. تقوم شركات أجنبية باستثمار أموالها فى استصلاح الأرض والبناء وتستفيد من عائدات مشروعاتها لوقت محدد ومعلوم يتم الاتفاق عليه ثم بعد ذلك نقول لها « بالسلامة » .. ويصبح كل شئ بعد ذلك ملكا خالصا لنا .. ولكن فى البداية والنهاية لن يسدد ديوننا إلا إنتاج عقول وسواعد أبناء مصر .

وحينما تعود زينب لتسأل والدها : ولكن لا أحد اليوم ينتج ؟

يقول الحكيم : لأن الدولة تركز اهتمامها على التعليم الجامعى دون أن تهتم بالتعليم الفنى ، وتكون النتيجة هى امتلاء دواوين الحكومة بالموظفين غير المنتجين .. فكيف يأتى إنتاج من موظفين قاعدين على مكاتب ، وكثيرين منهم لا توجد لهم مكاتب .. وسنجد فى كل مصلحة حكومية عمالة زائدة وبطالة مقنعة .. والجميع يقبضون مرتباتهم من الدولة ولا يهتمون إلا بالحوافز التى يحصل عليها العامل والخامل ثم بعد ذلك نشكو من الديون .. هذه هى النتيجة الطبيعية لمجتمع يستهلك ولا ينتج ويأخذ دون أن يعطى .. فتتراكم الديون ولا نستطيع حتى سداد فوائدها .. بل حتى القروض التى تقترضها كل وزارة لا تحسن استثمارها .. بل إن بعضها لا يتذكر القرض إلا بعد فوات المدة المطلوبة لاستخدامه .. وميزانيات لوزارات لا ترشد استعمالها .. والله .. يقسم الحكيم منفعلاً – لو كنت وزيرا للمالية لفعلت ما يجب أن يفعله أى وزير مالية عنده شئ من الفكر .. يضيف الحكيم متصوراً نفسه وقد أصبح وزيراً للمالية .. سأطلب ميزانية الدولة لا لكى أقرؤها ولكن لأشطب نصفها بالقلم الأحمر .. فبدلاً من إنفاق مائة ألف فى بند من البنود يُكتفى فقط بإنفاق خمسين ألفاً .. سيقولون لى هذا غير ممكن لأن عندنا مشروعات كذا وكذا .. سأقول لهم نصف ما عندكم يكفى وزيادة إذا أنفقتموه بضمير وإخلاص .. لأن الذى يحدث أن أى مشروع ينفق عليه أضعاف تكلفته الحقيقية لأن « اللى طالع واللى نازل عايز فلوس .. لم يعد الناس يتحركون أو ينامون إلا بالفلوس .. لازم هذه الفوضى تنتهى وكل واحد لا يأخذ أكثر من حقه ، ومن يريد أن ينام ولا يعمل فليتم مجاناً والمكاتب مليئة بالنائمين ولابد من إيقاظهم بأنه لا يوجد فلوس ولا حوافز إلا لمن يعمل وينتج .. لازم يكون هناك شئ ضاغط ليفيق النائمون والكسالى ..

ولكننى الاحظ أنه فى بلدنا وكل البلاد الديمقراطية أن صاحب الصوت العالى ويقدر « يزعق » فى الصحافة أو فى الشارع .. الحكومة تسجد له .. حدث هذا فى فرنسا عندما شرعت الحكومة فى إصلاح التعليم بإحداث بعض التغييرات فيه ، فقام الطلبة يصرخون وفرضوا بصوتهم العالى على الحكومة أن تتراجع .. وهذاالصراخ هو أيضاً الذى يجعل حكومتنا تخشى طرح مسألة إعادة النظر فى مجانية التعليم .. ولكننا نحتاج إلى نموذج الحكومة الإنجليزية فيما تراه لازماً لمصلحة المجتمع .. فعندما أراد عمال المناجم أن يفرضوا شروطهم على الحكومة وأن يظهر رئيسهم زعيماً فى الشارع البريطانى .. تصدت لهم المرأة الحديدية - تاتشر - ولم تخضع لصراخهم ، ولكن أغلب النماذج فى البلاد الديمقراطية هو أن الحكم للصوت العالى والصراخ ، فأصبح بإمكان أى واحد انه يجمع بعض الناس من الشوارع أو يعملوا اضراب فتهتز الحكومة وتستجيب لمطالبهم .

وتسأل زينب : ولكن ماذا تفعل الدولة .. ألا توجد ديمقراطية .. ويجب على الحكومة أن تستمع للرأى الآخر ؟

يقول الحكيم : الحكومة تستمع للرأى الآخر لو كان فيه مصلحة لغالبية المجتمع .. لأن الديمقراطية لا تعنى أن الحكم للصارخين والزاعقين .. والديمقراطية لا تعنى المجانية للراسبين .. والديمقراطية لا تعنى حوافز للنائمين .. الديمقراطية هى ما يحقق مصلحة الجميع .. ولا أدرى حتى الآن لماذا تتمسك الدولة بتعيين الخريجين عن طريق القوى العاملة .. ويبدو أن ذلك لأنها عودتهم على أن تعلمهم مجاناً وتوظفهم مجاناً دون أن تأخذ منهم مقابل من عمل أو إنتاج فأصبحت الدولة تطعم الناس وتنيمهم وتعطيهم حوافز أيضاً .. يضيف الحكيم ضاحكا - ويبدو أن الدولة لها مصلحة فى نوم الشعب تفوق مصلحتها فى الحصول على إنتاج منه ، وهو أن تشغله لكى لا يشارك فى أمور الدولة بما يراه من لخبطة فى سياستها .. برأى قد

يخالفها ، فهى تعمل بالمثل القائل « اطعم الفن تستحى العين » .. وإذا كان هذا يصلح فى ظل حكم ديكتاتورى فإنه لا يصلح فى ظل حكم ديمقراطى .. فالشعب الآن يرى ويسمع ويتكلم .. خلاص الشعب كبر ويجب على الحكومة أن تشركه فى سياستها وتقول لمن يريد أن يتعلم بجانا أن يتفوق .. ولمن يريد أن يأكل أن يعمل ، والذى ليس له مكان فى الوادى الضيق تعطيه الأرض فى الصحراء ليستصلحها ويزرعها ويبنيها .. وليفعل الشباب مثلما نرى فى بعض الأفلام الامريكية كيف بنوا أمريكا .. فنجد رجلاً وزوجته وأولاده أقاموا فى مكان كصحراء « نيفادا » وبنوا « كشكين » خشب كمنزل مؤقت يأويهم ، ودقوا « ترمبة » ماء ، والزوجة تطبخ وتساعد زوجها فى الاستصلاح والبناء ، ومعها بندقية لتدافع عن نفسها أمام الهنود الحمر حينما يغيب عنها زوجها .. فنرى أن هذه البلاد صارت دولة كبيرة مكتفية ذاتياً .. وهى أصلا صحراء .. كل هذا بجهود أبنائها .. فلماذا لا نقلد غيرنا فيما يفيدنا ؟ إننى أرى أشياء عجيبة .. ذهبت مرة إلى باريس منذ حوالى ثلاث سنوات وجاءنى شاب مصرى ومعه زميل له .. وكنت جالساً على قهوة فأقبل علىَّ وقال : إنه يقرأ لى ، ثم دخل فى الموضوع وهو أن لديه مشكلة ، وهى أنه يحصل على ما يساوى ١٠٠ أو ٢٠٠ جنيه بينما الفرنساوى يحصل على أكثر منه فى نفس مهنته ، فقلت له : يا أخى خللى فى عينك نظر .. بقى انت فى بلد الفرنساوى وتعمل بمهنته وتريد أن تتساوى به ؟.. وسألته « انت خريج إيه » قال : أنه خريج كلية الزراعة .. قلت له : افرض ان كلية الزراعة بالاتفاق مع الدولة أعطتكم قطعة أرض .. خمسين أو عشرين فدان وقالت لكم ازرعوها وابنوها وخذوها .. أليس هذا أفضل من جلوسكم على مكاتب أو مجيئكم إلى هنا فى باريس تشتغلوا « جرسونات » ؟ فقال لى الشاب المصرى : ياريت .. ولكن اللوائح والقوانين الحكومية من القرن الماضى

والبيروقراطية والروتين من أيام الفراعنة ، تعقدنا وتنفرنا مما يجعلنا نهرب ونختصر الطريق بالعمل « فى بلاد برة » – فقلت له : لذلك يجب أن يكون لدينا عقل عام يدير الدولة ويقول ياناس نحن لدينا صحراء تعالوا نعمرها لكى يتنفس الوادى ولا يختنق ، وتقوم حملة فى وسائل الإعلام لتشجيع الناس على الاتجاه إلى الصحراء .

وتستدرك زينب لتقطع استرسال والدها : يابابا لمن تقول هذا الكلام ، هل حافظنا على أرض الوادى لنستصلح الصحراء .. إن المليون فدان التى استصلحتها الثورة ضاعت مع تجريف الأرض وبناء المساكن ؟

فيوافق الحكيم ابنته ويؤكد كلامها بوقائع حدثت فيقول :

ساعات يأتى لى ناس من الفلاحين يقولون لى : غداً لن نجد الفلاح .. لأنه إما هجر أرضه وسافر للبلاد العربية يعمل له قرشين ويشترى سيارة يعمل عليها بالليل والنهار ، أو يعود فيبيع طين أرضه الخصب لمصانع الطوب الأحمر ، ويبنى بيوتا يؤجرها للاستفادة من أزمة الإسكان ، وحتى الذين لم يهجروا الأرض تخلى عنهم أبناؤهم وتركوا الريف إلى البندر بحثاً عن وظيفة ومكتب .

وتجد زينب أن تحليل والدها لمجرى الأحوال يدل على ألا فائدة فتحاول التسلل إلى منطقة يأس بداخله فتقول له : إذن لم يعد هناك أمل ؟

فيقول الحكيم مصمما : الأمل موجود لكن المهم أن نبدأ العمل .. وأنا أجد بعض الإنجازات التى يفتتحها الرئيس مبارك أو يقوم بزيارتها تشعرنى بالفرح وتدل على أن لدينا إمكانيات كثيرة وكبيرة ولكننا لا نستغلها وإذا استثمرناها لا نحسن استغلالها .. وهذاما يحزننى ..

تسأله زينب :

وكأنها تريد أن تنهى الحوار الذى بدأ ولا تبدو له فى الأفق نهاية ولا زالا جالسين أمام مائدة الطعام : والحل إيه يابابا ؟

فيقول الحكيم : الحل يبدأ بمواجهة جريئة من الدولة لكل مشاكلها دون خوف من صراخ الزاعقين .. وأولى المشاكل التى تحتاج إلى مواجهة هى مشكلة نظام التعليم .. لابد من إحداث ثورة فى التعليم .

وتنبهت زينب إلى أن حوارها مع والدها قد امتد بما أجهدها وهى الشابة ، بينما والدها الشيخ لا يكل ولا يمل ، فما أيسر أن يلتقط الحكيم أى ملاحظة أو كلمة عابرة يجعلها مفتاحاً لنقاش طويل يمتد بالساعات على مائدة الطعام ، وكان يحدث هذا حينما تجمعه المائدة مع بنات زوجته وأزواجهن فيمتد الحديث بالثلاث والأربع ساعات إلى درجة قد ينسى معها الجالسون أنفسهم وينسون من أى بداية كان النقاش ، ثم بمهارة يجدون الحكيم يلملم أطراف الحديث ليصل فى نهايته إلى النتيجة التى يربطها ببدايته ، والجميع مستمتعون بتحليله للموضوعات التى يتناولها سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو دينية أو فنية .. الخ ، لقدرته على جذب مستمعه إليه مدعماً كلامه بالحكاية والطرفة والقصة والذكريات ، وغالباً ما كان الحكيم يجد فى زينب ضالته فى الفترة الأخيرة من حياته فيمارس معها رياضته الفكرية فى الحوار والنقاش .. الذى لا يعى منه أحفاده شيئاً فينسحبون من على المائدة بعد أن يكونوا قد تناولوا طعامهم ، دون أن تتنبه أمهم لقيامهم ، إلا بعد وقت طويل ، فما لهم وهذه المناقشات التى لا ناقة لهم فيها ولا جمل رغم أنها فى كثير من الأحيان تتناول مستقبل جيلهم .

وكما أتاح وجود زينب مع الحكيم الفرصة أمامه ليمارس دور الأب الذى غاب عنه كثيراً ، فإن وجود أحفاده قد جعله يمارس دور الجد ورب الأسرة ، كما كشف له كمفكر عن الفروق بين تفكير واهتمامات ثلاثة أجيال تعيش معه فى بيت واحد ، فضلاً عن كسر روتين الحياة الهادئة المملة التى كان يعيشها وحيداً مع مديرة بيته « منصورة » التى تقدمت بها السن

هى الأخرى ، وقد صارت الأيام أمام الحكيم مثل بعضها ، إما أن يقرأ كتاباً أو يشاهد تليفزيوناً يزعجه ما فيه أكثر مما يعجبه ، أو يجلس مع نفسه يستعيد ذكريات زوجة رحلت ولن تعود ، وابن غاب ولن يكون له ظهور .. حياة رتيبة ، خاصة وأن الحكيم ليست له هواية تعينه على ملء الفراغ الذى يعيش فيه ، حتى جاءت زينب وأولادها « مريم .. إسماعيل .. محمد » والذين حولوا حياة الهدوء التى يعيشها إلى ضجيج مما حول بيته الصومعة إلى بيت آخر لم يعد يعرفه ، حتى شعر الحكيم نتيجة للتغيير الذى أحدثوه فى بيته وحياته كأن هؤلاء الأحفاد أشبه بغرائب الطبيعة أو غزو قادم عليه من الفضاء ، عليه أن يتعامل معهم بالشكل المناسب ، ودار بينهم وبينه صراع ، إما أن يروضهم لطبيعته أو يروضوه هم لطبيعتهم ..

فهل يستطيع الحكيم أن يدخلهم فى كهفه أو يستطيعون هم أن يجعلوه يعيش معهم عصرهم ؟..

الفصل الثالث

المشاغب

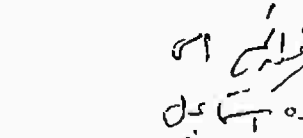

- أربعة من عشرين لموضوع إنشاء كتبه الحكيم !
- رسالة إلى وزير التعليم .
- مطلوب تليفزيون تديره الوزارة .
- الجد يلعب الكاراتيه مع حفيده .
- أخشى ما أخشاه إدخال الدين كمادة أساسية .

(*) إهداء من الحكيم إلى حفيده كتبه له على صفحة من أجندته دون أن يضيف إليه شيئًا .

إنقلبت حياة توفيق الحكيم رأسا على عقب بعد أن استقر أحفاده فى منزله ومعهم أمهم ، فقد تغير النظام إلى شىء آخر تماماً غير ما تعود عليه الحكيم فى حياته الطبيعية ، إنه يجد التليفزيون فى إحدى الحجرات مفتوحاً على آخره ، وفى حجرة أخرى ، « الكاسيت » تنبعث منه موسيقى مجنونه ، وفى صالة البيت كرة ، تضرب فى الأبواب ، وكتب وكراسات ملقاة يمينا وشمالاً ، وتليفون مشغول بالساعات .. مريم تتحدث إلى صويحباتها .. وهو يريد أن يتكلم فى التليفون فينتظر بحجرته حتى تنتهى حفيدته من مكالماتها ثم يخرج ليجد حفيده إسماعيل قد استلم التليفون من أخته ليتحدث هو الآخر إلى أصحابه ، أما المذاكرة فهى على الأرض بدلاً من المكتب ، والطعام بلا مواعيد ، فى أى وقت « أكل » بين الوجبات الثلاثة ، وأثناء مشاهدة التليفزيون ، وياليت الأحفاد يأكلون بهدوء بل بطريقة تستفز الحكيم فتجعله يقول لهم : مالكم تأكلون فى بوهيمية شكلكم يضايقنى .. الأكل له نظام) ولكن من يسمع له أو يستجيب ، مما يسبب له متاعب نفسية ، فشعرت به ابنته « زينب » وأحست بحرجه من أن يقول لها « خذى أولادك واجلوا عن هذا البيت الذى غيرتم معالمه .. خلاص لا أريدكم) . فهذا آخر ما سيقوله الحكيم خلاصا من هذه الفوضى التى شكا منها إلى ابنته معبراً عن قلة حيلته أمام ما يفعله أحفاده فقال لها « أنا حاسس أنى غير قادر أن أعيش فى هذا الجو الملخبط ، ولكنها حين تسأله « تقدر يا بابا .. تستغنى عنا » ؟ فيقول لها مستسلماً : أنا ؟. لا طبعاً لا أستطيع أن أستغنى عنكم » .

وبدأ الحكيم مع الوقت يتعلم قلة النظام من أحفاده بدلاً من أن يعلمهم هو النظام .. جيلهم هو غلب جيله .. كل جيل يظن نفسه هو البداية وأنه

على صواب وأن ما سبقه كان على خطأ .. ولذلك فإن الجيل الذى يأتى إن لم يلغ ما سبقه فإنه لا يأخذ به ولا يحاول أن يستفيد منه .. وهكذا لا تتواصل الأجيال .. كل جيل مقطوع الصلة بمن سبقه .. ولذلك يقول جيل كهذا الجيل إنه بلا أساتذة .. بلا آباء .. تغير الزمن وهذا صحيح .. وتغيرت ظروف كل جيل عن الآخر .. وهذه سنة الحياة .. ولكن هذا الجيل جمع من المتناقضات والسلبيات أكثر مما جمع جيل آخر .. فهو جيل متمرد ، أكثر جرأة .. أكثر رفضاً .. أكثر اهتماماً بما قد لا ينفع وإن كان يضر .. فأين هذا الجيل من جيل الحكيم .. جيل عقله فى رأسه ، وجيل عقله فى قدميه .. جيل كانت نظرة الأب فيه إلى الابن كفيلة بسحقه ، وجيل أصبح فيه عادياً أن يعلو صوت الابن على أبيه .. يشعل له سيجارته ويدخن معه .. ، فرق بين جيلين كالفرق بين سماء وأرض .. أو شرق وغرب .. شعر الحكيم بذلك بقوة إلى حد الصدمة بعد أن عاش أحفاده معه .. وبدلا من أن ينجح هو فى أن يعودهم على عاداته وتقاليده ، ويقودهم بفكره وخبرته ، وجدهم يقودونه ويتركون تأثيرهم عليه ، فلم يجد هو مفراً من أن يتعود على طباعهم وعاداتهم .. فليس لقادم من كهف الزمن الماضى أن يفرض زمنه على الزمن الحاضر ، تلك هى الحكمة التى حاول الحكيم أن يحفرها على جبين كل عصر ويعلمها لنا فى مسرحيته « أهل الكهف » وآن له أن يطبقها فى تعامله مع أحفاده .. فإن لم يكن بقدرته أن يعود كأهل كهفه بعيدا عن الجيل الجديد ، فلا مفر له من أن يتعايش معه بنفس روحه ويجاريه حتى وإن لم يكن موافقاً على ما يجرى أو يحدث فيه .

لقد حدث نوع من التطبيع بين الحكيم وأحفاده ، أو الكائنات الغريبة الفضائية كما كان يسميهم بسبب سلوكهم وتصرفاتهم .. فعندما يجدهم يأكلون فى غير وقت الطعام يسألهم عما يأكلون ؟ ويأكل معهم وهو الذى

كان لا يتناول طعاماً إلا فى مواعيد وتوقيتات محددة .. ثم وهو الذى لم يتعود على تناول الأكلات « الحريفة » ، تعود عليها إلى درجة أنه إذا جلس على الطعام وافتقدها يقول لابنته « عندك إيه حاجة « حراقة » آكلها ؟!

لقد أصبح الحكيم مثل أحفاده إلى درجة لم تكن تتخيلها إبنته زينب فى يوم من الأيام .. لقد فوجئت به يمشى فى حجرته « حافى القدمين » .. فوقفت تنظر إليه فى دهشة وكأن قدميها قد ثبتت بمسامير فى الأرض للمفاجأة التى استولت عليها .. ولكنها حاولت أن تجد مبرراً للمفكر الكبير .. ظنت أنه ربما كان ناسياً نتيجة سرحة من سرحاته التى ينسى فيها نفسه وما حوله ومن حوله ، أو قد يكون نسيانه بفعل الشيخوخة فلها أحكامها التى تبيح العذر لصاحبها .. ونبهته قائلة « بابا .. انت ماشى حافى ؟! فقال لها بلا أدنى حرج أو تردد « ما خلاص بقى » !.. يعنى فات وقت التعجب لقد صار مثل أحفاده أو قد صيروه مثلهم .

ولكن كله يهون أمام ما يلاحظه الحكيم فى مقررات أحفاده الدراسية .. مريم بالمرحلة الإعدادية .. « وإسماعيل » بالمرحلة الابتدائية .. يفتح كتبهم أثناء وجودهم بالمدرسة أو أثناء جلوسهم فى البيت للمذاكرة .. فمنهج اللغة العربية ليس مما يجيده التلاميذ فى لغتهم ناهيك عن طريقة تدريسها .. وهذه الرياضيات الحديثة .. المعقدة .. يحمد الحكيم ربه أنها لم تكن موجودة على أيامه وإلا ما كان قد نجح أبداً .. ورغم أن أمريكا قد عدلت عن تدريسها إلا أنها لا تزال تدرس عندنا .. يتساءل الحكيم : لماذا الإصرار على التعقيد وتنفير أبنائنا من التعليم ؟ ولكن كله كوم والتربية الدينية كوم آخر لدرجة أن أخوف ما يخافه الحكيم هو إدخال « الدين » فى المدارس (كمادة أساسية بدلاً مما هى عليه الآن كمادة غير داخلة فى المجموع) . يسأله التلميذ : لماذا ؟ ويجيبه إننى أسمع من أولياء الأمور

أنهم يجدون أولادهم فى حالة خوف شديد ومشقة شديدة من إدخال الدين فى المدارس كمادة أساسية لأن المسئولين عن التعليم لا يختارون فى المقرر الدينى إلا أصعب الآيات لغة ومضموناً وهذا مما ينفر من الدين أكثر مما يحبب فيه ، بينما فى جيلنا نحن كنا نقبل على حصة الدين لأن الدين كان يصور لنا بصورة مبدعة .. فكانت الآيات المقررة قصيرة وبسيطة تتدرج بعد ذلك مع مداركنا وأفهامنا كلما صعدنا درجة من درجات الدراسة .. كما كان الأستاذ أو الشيخ الذى يدرس لنا يروى قصص الأنبياء بطريقة تستهوينا .. لهذا لم نكن نشعر أبداً أن «الدين » شيء صعب مثلما يحدث اليوم مع أن الدين بسيط فى تعاليمه ، ويجب أن يكون كذلك بسيطا فى طريقة تناوله للطلبة ، وهذه هى البداية لتربية سلوك يتمشى مع طبيعة الإسلام وبساطته .. وبهذا يكون الدين أداة للرقى ، وبذلك تتخرج لدينا أجيال تتفهم المعنى الحقيقى للإسلام .. ولكن ما يحدث عكس ذلك تماماً .. فليس فى برنامج المدرسة ما يدل على مباشرة هذا السلوك » .

فسور القرآن بوجه خاص ومنهج الدين المقرر ليس فى مستوى تلميذ فى مرحلة إبتدائية .. ولذلك كان الحكيم يقول لحفيده إسماعيل متعجباً : هذه السور مقررة عليكم ؟.. أنتم تتعبون جداً » . بل حتى الموجهين للفكر الدينى من شيوخ المساجد .. بعضهم يميل إلى التعصب .

يستأذن الحفيد ، « جده » فى النزول يوم الجمعة لأداء الصلاة .. فيبدو السرور على الحكيم ويسأله : هل تصلى يا إسماعيل ؟ ، ويشجعه ، ويوصيه أن يحذر السيارات وينظر يميناً وشمالاً قبل أن يعبر الشارع تجنباً للحوادث التى أصابت « زيداً وعمراً » ، .. ويعود إسماعيل ليسأله جده عما قاله خطيب المسجد فى خطبته للمصلين ، فيخبره بأنه تناول ادعاءات المسيحيين ببنوة المسيح لله ، فيتعجب الحكيم ويتساءل : هل هذه قضايا تطرح على الناس فى المسجد .. إنهم يؤججون نار التعصب والفتنة .. إن

رجال الدين أولاً وأخيراً هم المسئولون فى الأغلب فى أن الشباب الغيور على دينه لجأ إلى العنف لأنه وجدهم لا حول لهم ولا قوة وقد أهملوا مسئولياتهم فى توجيه الشباب والتفتوا إلى الدين من حيث هو شعائر ونصوص وحلال وحرام .. وكلام ليس له دخل فى المهمة الحقيقية التى يجب على رجال الدين القيام بها لأنهم الورثة الحقيقيون للنبى صلى الله عليه وسلم فى أن يحتفظوا بالأمة الإسلامية كخير أمة أخرجت للناس بعد أن ارتفع بها الرسول من محيط الجاهلية .. ولكنهم نظروا إلى مظهر الدين وليس إلى جوهره وتركوا الشباب حائراً لايجد من يقوده فقاد نفسه ، وكانت النتيجة التى يعرفها الجميع .

ويحاول الحكيم أن يصلح فى عقل حفيده ما أفسده فيه خطيب المسجد من بذر بذور التعصب مفهما إياه فكرة الدين الصحيحة وأنه دين يسر وسماحة .. وليس دين عسر وتعصب ، ولكن الحفيد لا يستطيع أن يفهم أو يعى كثيراً ما يقوله له « جده » الذى رغم ذلك يحاول أن ينزع من رأسه أى أفكار قد تترسب فى عقله الباطن تكون لها مردوداتها كلما نما وكبر ، ولذلك كان الحكيم يسأل حفيده كلما عاد من صلاة الجمعة عن موضوع خطبة إمام المسجد ليطرد له منها بالشرح والتحليل ما يكون قد علق بذهنه من مفاهيم خاطئة لأمور الدين ، لأن إمام المسجد يكون أكثر تأثيراً فى الفتية والشباب من المدرسة التى تنفرهم بمناهجها ومقرراتها الدينية من فهم الدين فهما صحيحا ، رغم أن المدرسة والمسجد يلعبان دوراً هاماً بجانب وسائل الإعلام فى التربية والنهوض والرقى ، وإذا كان الحكيم يستطيع إيجاد التوازن لحفيده مع ما يسمعه من خطيب المسجد ، فما الذى يستطيع أن يفعله مع منهج المدرسة .. لا شىء يملكه كمفكر سوى أن يطالب بإحداث « ثورة فى التعليم » ونظامه الذى أدى إلى انتشار الدروس الخصوصية ووصل إلى درجة الغش الجماعى فى الامتحانات العامة .. فقد

كان الحكيم يغضب عندما يرى « معلمة » تخرج وأخرى « تدخل » لإعطاء حفيدته « مريم » دروساً خصوصية مما جعله يقول لأمها زينب « لا داعى لأن تذهب مريم إلى المدرسة وهاتوا لها مدرسين فى البيت وتذهب آخر السنة للامتحان » .. ولكن الحكيم يفاجأ بأخبار المهزلة التى وقعت فى لجان الامتحانات فى بعض المدارس الإعدادية بمدينة الحسينية بمحافظة الشرقية وبعض البلاد التابعة لها عندما اقتحم بعض أولياء أمور التلاميذ ، لجان الامتحانات وخطفوا أوراق الأسئلة وخرجوا بها ، ثم عادوا بعد دقائق إلى اللجان مرة أخرى وقد كتبوا الإجابات على أوراق الأسئلة ، بل إن « ميكروفونا » قد تم وضعه فوق أحد المساجد القريبة من إحدى اللجان وكانت تذاع منه الإجابات علانية على أسئلة الطلبة فى الامتحانات .. مما جعل الحكيم يقول ساخراً معلقاً بمرارة « دروس خصوصية وأيضا غش ؟!. المفروض أن يجعلوها غشًا ولا داعى أن ندفع فلوساً للدروس الخصوصية » .. على أنه رغم الدروس الخصوصية التى كان يتكبد الحكيم مصاريفها لحفيدته « مريم » بالمرحلة الإعدادية إلا أنها لا تستطيع حتى أن تجيد كتابة موضوع إنشاء » ، ولذلك جاءته يوماً بدلا لها عليه قائلة « يا جدو .. فى المدرسة طالبين موضوع إنشا عن « أضرار المخدرات » .. كيف أبتديه ؟ » .. فراح يعطيها أفكاراً للموضوع الذى طلبته ولكنها طمعت فيما هو أكثر متكاسلة عن كتابة موضوع الإنشاء وطلبت من جدها أن يريحها ويكتبه لها ، وظنت أنها بذلك ستحصل على أكبر درجة فى حياتها الدراسية عن موضوع إنشاء ، ولكن كانت تنتظرها مفاجأة لم تكن أبداً تخطر على بالها ولا بال أمها ، فقد جاءتها من مدرستها وهى تقول لها « هل رأيت أبيك الذى أنت فخورة به .. لقد حصلت على أربعة من عشرين على موضوع الانشا الذى كتبه لى .. يعنى « يا مامى » لو كنت أنا كتبته على الأقل كنت أخذت ١٢ أو ١٣ درجة وليس

أربعة » ! وتضحك مريم ، وتضحك معها أمها التى تقول لابنتها : وهل عرفت « المعلمة » أن جدك هو الذى كتب الموضوع ؟ ، قالت مريم « خجلت أن أقول لها » ، فتقول لها « زينب » وهى لا تزال تضحك على المهزلة « نفسى إنك تقولى لها » .

وكان العذر الذى هو أقبح من الذنب ، وساقته معلمة « مريم » عندما أخبرتها أن موضوع الإنشاء الذى كتبته واستحقت عليه الأربع درجات من عشرين ، كان بقلم جدها المفكر الكبير ، بررت ذلك بأن الموضوع لم يستكمل كل جوانبه وعناصره !

لقد كان توفيق الحكيم فى طفولته بالمرحلة الابتدائية يحصل على أعلى الدرجات فى موضوعات الإنشاء ، فما باله وقد صار شيخ الكتاب يحصل على أضعف الدرجات ؟! ، وهو لم يعرف حتى رحيله بالأربع درجات التى حصل عليها ، ولاشك أنه لو علم بذلك لتأكدت له وجهة نظره عن فشل نظام التعليم الذى لا يستحق فيه مفكر كتوفيق الحكيم سوى الرسوب فى موضوع إنشاء يكتبه لحفيدته .

* * *

وكانت ملاحظة توفيق الحكيم لتدهور التعليم ، قد جعلته يطالب بثورة فى التعليم ، وخاطب أحد وزراء التعليم* يقترح عليه قائلا :

« وحبذا لو أنفق حتى المليار فى إنشاء تليفزيون خاص بالتعليم ، تديره وزارة التربية والتعليم وتضع برامجه طبقاً لمراحل العمر ، ومقتضيات المراحل الدراسية وتجعل من هذه البرامج نموذجاً للمنفعة والمتعة معاً .. وتستعير الأفلام الملائمة لهذا الهدف العظيم من مختلف البلاد المتقدمة .. إن

(*) د . عبد السلام عبد الغفار الذى دخل فى حوار مع توفيق الحكيم اداره المؤلف حول معنى الثورة والتطوير ، وملحق فى الباب الخاص بالوثائق ، صورة بخط الحكيم للاقتراح الذى يرى فى تحقيقه إحداثا للثورة التى دعا إليها .

وزارة التعليم بهذا التليفزيون وإدارته الخاصة الملحقة بوزارة التربية والتعليم .. سيكون هو التطوير بل هو « الثورة التعليمية » النافعة المحببة ، التى ستحدث الأثر العظيم فى المجتمع كله والمستقبل كله ، وتكون مثلاً وقدوة يتبعها العالم كله فى دهشة وإعجاب ....) .

* * *

وإذا كان الحكيم يدعو لثورة فى التعليم ، من أجل مستقبل جيل أحفاده والأجيال التالية ، ويقارن بين التعليم الجيد فى عصره ، وبين التعليم المتدهور فى عصر أحفاده ، إلا أنه يغبط جيل الأحفاد على ما أتيح لهم من وسائل الثقافة والترفيه :

لعب ، تليفزيون ، فيديو ، نوادى ، حرية فى القراءة لأى لون من ألوان الثقافة والمعرفة والتسلية دون حسيب ولا رقيب ، وهو ما لم يكن متوفرًا لجيله ، فهو لم يكن حرًّا فى اختيار ما يقرؤه من روايات وقصص ، لأن والده كان يفرض عليه نوعية معينة من القراءة التى لا يحبها ، فكان يقرؤها إرضاء لأبيه ، وكان يختفى بما يريد قراءته بعيدًا عن عيون أهله كما لو كان يرتكب ذنبًا ، فكان يتسلل حاملاً الكتب ليقرأها تحت السرير على ضوء شمعة ، نسيها ذات يوم ، فكادت تشعل حريقًا فى البيت لولا لطف الله .

أما اليوم فى هذا الجيل فباستطاعة « مريم » حفيدة الحكيم أن تقرأ روايات « عبير » العاطفية دون أدنى خوف أو حرج ، وباستطاعة حفيده « إسماعيل » أن يقرأ الروايات البوليسية التى يحبها ، بدون أن يجبره أحد على قراءة شئ غيرها ، بل كان باستطاعة أحفاد الحكيم أن يعرضوا عن قراءة ما يهديهم به جدهم من كتب لينمى فيهم حب الاطلاع والمعرفة والثقافة ، مما يناسب أعمارهم ، فكانوا يأخذونها فرحين بشكلها وصورها

الملونة شاكرين جدهم ، دون أن يقرءوها ، فالحفيد يهوى لعب الكرة ومشاهدة أفلام الكاراتيه فى الفيديو ، وقراءة الألغاز والقصص البوليسية .

أما الحفيدة فتهوى مشاهدة المسلسلات والأفلام ، وسماع الأغانى ، وقراءة الروايات العاطفية . لا شئ مما يحضره لهم جدهم يستهويهم ولا شئ من حواره مع أمهم على مائدة الطعام يعنيهم ، فيظل الحوار بين طرفين :

الأب وابنته ، أما إذا شارك الحفيدان فى الحوار ، فلكى يحدثا جدهما عما شاهداه فى أفلام الفيديو ، أو يحكيا له عن أصحابها وأساتذتها فى المدرسة ، فيقلد حفيده إسماعيل ، مدرسيه فى كلامهم وحركاتهم بطريقة كاريكاتورية تثير الضحك ، ولكن الحكيم يظل صامتا يعود بذاكرته حينما كان فى مثل سن حفيده ، وكأنه يذكره باثنين من زملاء الدراسة الأولى ، وكانا يفعلان شيئًا مع أساتذتهم يشبه بعض ما يفعله حفيده اليوم ، وقد مرت الأيام وأوقعهما سوء حظهما فى يده عندما كان وكيلًا للنيابة بمدينة طنطا ، حيث قدما إليه فى « محضر تلبس » فى عملية نصب على الطريقة الأمريكانى حينما طلبا من « دخاخنى » علبتى سجائر ، « وفكة » عشرة جنيهات ، فأعطاها لهما البائع دون أن يأخذ العشرة جنيهات ، وأسرعا إلى سيارتهما الفخمة ، لولا أن توقف محركها ، فتم القبض عليهما ، ليقعا فى يد زميلهما فى الدراسة ، توفيق الحكيم الذى صار وكيلًا للنيابة ، وتذكر لحظتها ماذا كان يفعل أحدهم ، بأحد الأساتذة الذين أطلقوا عليه اسم الشيخ « بنجر » الذى كان يقذف التلاميذ المشاغبين « ببلغته » ، حتى فكر هذا التلميذ الذى كان يجلس بجوار النافذة ، فى إضحاك زملائه على أستاذهم ، حينما قذفه الأستاذ بهذه « البلغة » فتفاداها بسرعة لتسقط خارج النافذة ، ليظل الأستاذ حافيا يلعن ويسب !

وأفاق توفيق الحكيم من ذكرياته على ضحكات حفيده وهو يقلد

مدرسيه ، وراح الجد يتجاوب معه وإن لم يوافق على ما يفعله ، فهو يحبه لأنه يحمل اسم وحيده الراحل « إسماعيل » ، صاحب تسمية الحفيد بهذا الاسم على غير رغبة من أمه التى كانت لا تستسيغ أن يوجد اثنان فى أسرة واحدة باسم واحد ، ولكن إسماعيل خال ابنها ، كان كمن يتنبأ لنفسه بأنه لن يعيش طويلًا ، فقد أبدى رغبته لأخته زينب أن تسمى مولودها القادم إن كان ولدًا ، على اسمه ، فوافقته على غير إقتناع وساعتها يحلها ربنا ، حتى كانت ساعة مجئ وليدها ، فتم إبلاغ إسماعيل تليفونيًا وكان خارج البيت ، فقال : مبروك إسماعيل .. أسموه إسماعيل .

مما أحرج زينب ، وهاهو إسماعيل الحفيد يعوض الحكيم عن إبنه ولو بمجرد حمله لاسمه ، ولذلك كان الحكيم يهتم بحفيده ويعمل على إعداده ليكون رجلًا مؤهلًا لخوض غمار الحياة مسلحًا فيها بالعلم والثقافة والهوايات أيضًا ، لذلك حاول الحكيم أن يقرب المسافة بينه وبين حفيده ، عله يعوض معه فى طفولته ما لم يتح له أن يفعله مع إبنه عندما كان فى مثل سنه .

فكان يهتم بدراسته ، ونتائج إمتحاناته ، فيقول له :

تعال يا اسماعيل فرحنى ، فيسعده الحفيد بتفوقه ، معتمدًا على نفسه ، دون حاجته كأخته إلى دروس خصوصية وهذا مما يجعل الحكيم أكثر بهجة بحفيده الذى يحصل على درجات عالية بمجهوده .. حتى فى العام الدراسى الأخير (الذى توفى فيه الحكيم) حينما انشغلت زينب بوالدها المريض مما أخذ منها الوقت الذى كانت تمنحه لإبنها لمتابعة دراسته ، فشعرت تجاهه بالتقصير ، لذلك كانت تسأله : هل أنت محتاجنى يا إسماعيل » ، فيدرك هو حاجة والدها إليها فيقول لها بذكاء الجيل دون

أن يصرح باستغنائه عن أمه ، فهو لا يستغنى عنها أبدًا : « أنا غير مهم .. ابق مع جدو فهو محتاجك أكثر منى » .. ولذلك كان الحكيم كلما رأى حفيده يقول له مشجعًا « أقعد ذاكر .. أنا مبسوط منك لأنك تذاكر وتعتمد على نفسك بعكس أختك التى تعتمد على الدروس الخصوصية .. دعك منها إنها خائبة .. أما أنت يا إسماعيل براڤو عليك أنت مجتهد وشاطر .. وحذار أن تأخذ دروسًا خصوصية فهى ستضيع وقتك » ورغم أن الحكيم معجب جدًا بحفيده لتقدمه الدراسى إلا أنه كان يتأثر نفسيًا جدًا عندما يراه عديم النظام يجلس على الأرض ويذاكر .. فكانت أمه تدافع عنه بعدم وجود مكتب ليذاكر عليه إسماعيل ، فيقول الحكيم لها : لكن فيه « ترابيزات » وهى مثل المكاتب ، فتقول له زينب : الترابيزات ماتنفعش يابابا .. لازم يكون فيه مكاتب له ولأخته .. وتحاول الأم أن تبرر للحكيم عدم نظام ابنها بأنه ليس نابعًا منه ولكن المشكلة فى عدم وجود مكتب .. غير أن زينب اكتشفت أنها قد جانبت الصواب .. فبعد ما اشترت مكتبًا لإسماعيل لم يتغير الوضع .. إنه يلقى بكتبه على طاولة ذراعه على السرير بمجرد عودته من المدرسة ، ويفضل كما تعود أن يجلس على الأرض ويذاكر ، ومما يتعب الحكيم نفسيًا أيضًا أن يرى حفيده يستعمل « التكنولوجيا » فى « الحساب » ولا يستخدم عقله ، فحين يبعثه ليشترى له « أدوية العلاج » من الصيدلية يطير الحفيد فرحًا لأنه سيتقاضى « عمولة » عندما يقضى لجده بعض حاجياته ، وعندما حاولت زينب أن تنبه والدها ألا يجعل مسألة « العمولة » عادة دائمة ، لأن ذلك لن يجعل حفيده يقضى له شيئًا ، حبًا فى جده ولكن حبًا فى العمولة ، فيكون رد الحكيم المعبر عن فهمه لطبيعة الجيل الجديد :

هذا جيل لا يتحرك إلا بالفلوس .. لن يسير أو يفعل شيئًا إلا بالفلوس » .

يقولها الحكيم جادًّا مع شعوره بالهزيمة أمام هذا الجيل ، ولكن ليس له حيلة إلا أن يجاريه ويتفاهم معه بلغته وأسلوبه . وكان الحفيد يترصد جده حينما يراه صامتًا أطول فترة ممكنة ، فلا يتكلم ولا يسمع من يكلمه ، مما يكون إرهاصًا بالاستعداد لكتابة شئ ما يديره فى رأسه ، فينتظر الحفيد حتى يدخل جده إلى عالم الكتابة وإنهماكه فيها ، وساعتها يطالبه بما يريد من نقود ، فهذا هو الوقت المناسب الذى لا يستطيع فيه جده إلا أن يجيبه إلى ما يريد تخلصًا من إزعاجه حتى لا يقطع حبل أفكاره .

ورغم صراخ الأم لابنها أن يبتعد عن حجرة جده ، إلا أنه لا يضيع فرصة جاءته من أجل مزيد من النقود . وكان الحفيد كلما أراد النزول إلى النادى أو زيارة أصحابه ، يقول لجده : ألا تريد أن أشترى لك شيئًا ياجدو ؟

فيدرك الحكيم مقصد حفيده الماكر فيقول له :
هل تريد أن تأخذ كل يوم عمولة ؟! وفى إحدى المرات التى عاد فيها الحفيد بعد شرائه أدوية لجده ، طلب منه الحكيم أن يحسب له ما هو المنصرف وما هو المتبقى لكى يتركه له ، فيسرع الحفيد إلى « الكلكليتور » أو الآلة الحاسبة ، فيتضايق الجد من هذا السلوك التكنولوجى الذى يمارسه الحفيد فى غير موضعه حيث لا يجب استخدام هذه الآلة إلا فى المسائل العويصة ، ولكن استخدامها فى المسائل البسيطة له خطره على العقول فتتعطل ملكة التفكير وتضمر ، ويصير الإنسان عبدا للآلة التى صنعها .. لذلك حين كان الحكيم يتوقف مفكرًا فى مستقبل الفكر الإنسانى أمام التقدم التكنولوجى ، لم يكن يستبشر خيرًا ، فإن القرن القادم سيكون هو قرن الحضارة الآلية بدلاً من الحضارة الإنسانية .
ينبه الحكيم كمفكر إلى خطر المغالاة فى استخدام الآلة أكثر من

العقل ، وكانت ابنته زينب ، تلمس انزعاجه ، فتحاول التقليل من استخدام ابنها للآلة .

ولم يكن الحكيم بذلك عدوًّا للتكنولوجيا والأخذ بأساليب المدنية الحديثة ، ولكنه كان مرحبًا باستخدامها شرط ألا يعطل القدرات والطاقات والملكات البشرية ، وقد ظل الحكيم طوال حياته لا يستطيع استخدام آلة من الآلات ، حتى جهاز التسجيل لم يكن يستطيع أن يتعامل معه فى تلك المرات القليلة التى يستخدمه فيها ، إلا بواسطة ابنته ، وإذا قامت بتشغيله له فإنه لم يكن يستطيع أن يوقفه إذا أراد ، ولكنه ظل يستخدم يده لتحريكها فى الكتابة ، رياضته المفضلة ، بل عشقه المتيم به حتى آخر العمر ، كما كان يحرك قدميه بممارسة هواية المشى ، حين كان قادرًا على ذلك ، ولم يكن يفضل ركوب السيارات لأنها فى نظره تعجل بقدوم الشيخوخة والمرض ، أما السير على الأقدام فيحول دونها ، ويعيد الشباب ، ولم يتخل الحكيم عن هذه الرياضة حتى بعد أن وهنت عظامه ، فكان يتجول فى صالة البيت وبين حجراته ، بل إنه فى كل ما يخصه كان يحاول أن يقوم به بنفسه قدر استطاعته ، حتى فى فترة مرضه .

إنه يطهو الشاى لنفسه ، وينظف « بذلته » بمعرفته ، وأحيانًا ما كان يقوم بغسيل قمصانه ، وتلميع حذائه ، كما كان حريصًا على ترتيب فراشه بعد استيقاظه لأنه لم يكن يطيق أن يرى حجرة نومه « منكوشة » . ولقد حاول الحكيم مع حفيديه أن يستخدما مثله أدواته البشرية ، فيشجع مريم على أن تكون ست بيت ممتازة ، ويجارى إسماعيل حفيده فى هواياته بل ويشاركه فيها أحيانًا ، ولكن كله كوم ، والموسيقى كوم آخر ، إنه يصرخ فى حفيده كلما رآه أو سمعه يعزف على البيانو الموجود فى مدخل البيت ، فينهاه ويزجره ، ويقول لأمه :

أرجوك ابعديه عن المزيكا .. ربنا يخليك .. كفاية واحد » .

فهو يرى أنه لو ترك حفيده يسلك طريق الموسيقى الذى سلكه ابنه ، لتكررت نفس المأساة ، وما عدا الموسيقى فإن الحكيم يترك حفيده لممارسة أى هواية أخرى حتى لو لم يكن مرتاحًا لها أو راضيًا عنها ، وذلك حتى لا يحرمه منها كما حرم هو نفسه فى صغره من هوايات كان يحبها لولا أهله الذين أبعدوه عنها أو أساءوا توجيهه إليها ، مثلما فعلوا عندما انتزعت منه أمه « العود » بحجة أن ذلك يشغله عن دراسته . وعندما أراد أبوه أن يعلمه العوم ، جذبه من يده إلى حيث يسبح هو فى الأعماق دفعة واحدة ، فخاف من البحر وأمواجه ، وأقسم ألا يضع قدمه فى ماء بحر أبدًا منذ أن كان عمره عشر سنوات ، واستعاض الحكيم عن العوم فيه ، بالصيد منه عند ما كبر ، وحينما كان يزور قريته « أبو مسعود » فى ريف محافظة البحيرة ، لم يحدث أن وقعت سمكة فى سنارته ، فكان أقرانه يجاملونه بأن يضعوا له سمكة فيها ، ليدخلوا على نفسه البهجة والسرور ، ولكنه كان يعلم أنه لن يفلح فى هواية أحبها ، ولكنها نزعات ترتدى أزياء مختلفة بحسب الظروف والأحوال ، فقد كان يحب الرسم ويجتهد لكى يبرز فيه ، ولكنه لم يجد أحدًا يشجعه على الاستمرار فيه ، غير أن أجمل شىء كان يجذب الحكيم فى طفولته هو « الأراجوز » ، حيث أن فرح الدنيا لم يكن يثير فى مشاعره ما كانت تثيره دقات طبلته المتواضعة ، وهو يقترب من الحى الذى كان يعيش فيه .

أما اليوم عندما يشاهد الحكيم ، هوايات حفيده ، يراها هوايات خالية من الفكر والفن والخيال ، إنها هوايات تتسم بطابع العصر المتسم بالعنف ، فقد نشر التليفزيون ثم الفيديو ، رياضات كالكرة التى لا تخلو من عنف ، والكاراتيه ، بما تبثه الشاشة الصغيرة من أفلام بوليسية تستهوى الأطفال والشباب ، فأضاعت أجهزة الإعلام وأخطرها التليفزيون ، الحياة فى « المعنى » ولم يعد الإنسان يستطيع أن يعيش إلا فى

« المادة » ، ولم يعد فى مقدوره أن ينفخ الروح فى شىء ، لذلك كان الحكيم يرى أنه لابد من فنان يحتفظ ببعض قوى الطفولة ، فينسج من خياله صورًا توسع ولو قليلًا من أفق الحياة المادية الضيقة .

ولكن الحكيم الفنان لم يكن يستطيع أن يعيش مع خياله كثيرًا ، فقد كان حفيده يضطره إلى أن يظل مشدودًا إلى الواقع ، فكيف وأين للخيال أن ينمو ، والكرة التى يلعب بها حفيده تهز أبواب حجرات البيت ، وهو يصيح مع كل قذيفة « جول .. جول » .

مما جعل الحكيم يكاد يخرج من حجرته ليصرخ فيه ، أن يكف عن هذا الإزعاج ، ويذاكر له كلمتين ينفعوه . ولكن الحكيم يتراجع ، فقد تذكر أن حفيده متفوق فى دراسته ، ومن حقه أن يلعب ، وتذكر إلى جانب ذلك كيف أن من أكبر أخطاء حياته أنه لم يتعلق بلعبة أو هواية ، مما جعل حياته جافة ، فليلعب حفيده الكرة ما شاء له أن يلعب ،أليست هى تعبيراً عن أحد معالم العصر ؟. يسأله التلميذ عن رؤيته لمجتمعنا فى هذا العصر ؟ ، فيقول المجتمع تطور فصار فريقين :

مجتمع الكورة ، ومجتمع القهوة ، ناس يلعبون الكرة أو الطاولة ، ويقولون صائحين « جول » أو « شيش بيش » ، ويمر بهم بائع كتب يصيح « العقد الفريد .. لابن عبد ربه » ، الأيام « لطه حسين » ، العبقريات .. للعقاد » ، « الحمار .. للحكيم » ، فيطرده « الجرسون » قائلًا له : « امشى بره مفيش حمار هنا » !

يسأل التلميذ : وما تعليل ذلك ؟ يقول الحكيم : أنه قليل من يفهم أنه فى حاجة إلى عقل آخر غير عقله ، وهذا القليل إذا فهم أن المفكر قد نفعه فهو قلما يجهد كفيه فى التصفيق له ، وقد قيل إن مكتشف « البنسلين » ، والذى نفع الناس كثيرًا باكتشافه ، قد ذهب إلى وطنه ، فلما نزل من « القطار » وجد حشدًا من الناس على المحطة ، فحسبهم جاءوا

لاستقباله ، وإذا الناس يصفقون ويهتفون فى جهة أخرى ، وإذا بممثلة سينما مشهورة قد نزلت من القطار فتدافع الجمهور المحتشد نحوها ، فعرف « العالم المفكر المكتشف » أن حشد المستقبلين لم يكن له .. بل كان للممثلة المشهورة !.

* * *

وينشغل الحكيم بمستقبل حفيده وكل جيله وهو يرى ملامح المجتمع ورموزه تتمثل فى كورة ، وقهوة ، ومغنى ، وتمثيل ، ولذلك يرى أن الشباب معذور إذا راح يحسب المسائل ويقارن بين ما سوف يحصل عليه بعد تخرجه ، من الوظيفة حتى لو أخذ شهادات الدكتوراه ، وبين ما يحصل عليه لاعب كرة فى « جول » واحد ، أو مطربة فى أغنية واحدة ، أو راقصة فى هزة بطن واحدة . ولكن من هو المسئول ؟

يطرح الحكيم تساؤلاته وملاحظاته على إبنته أثناء تناول الطعام ، ويجيب :

الحكومة مسئولة عن وجود هذه التناقضات فى اتجاهات الشباب لأنها تشجع المجتمع على أن يكون مجتمعًا ماديًا ، وتبالغ فى التقدير المادى لفئات فى المجتمع تصبح هى المثل العليا للشباب فى تحقيق طموحاتهم المادية ، والتقليل من شأن الطموحات الفكرية .. فتسأله ابنته : ولكن ألا يتحمل المثقفون جزءًا من المسئولية ؟

فيوافقها الحكيم ويقول لها : للأسف لا يوجد عقل للمجتمع من المثقفين ينبه إلى خطورة هذا الوضع أو يؤثر فى الدولة لكى يصبح للفكر قيمة .

ورغم عدم رضاء الحكيم عن لعب حفيده بالكرة إلا أنه من ناحية أخرى لا ينهاه عنها لكى لا يحرمه من هواية يحبها ، كما حرم وهو فى مثل سنه من التعلق بلعبة ، مما يندم عليه اليوم ، فليعش مع حفيده طفولته

بطريقته ، لذلك كان يفتح له الصحف والمجلات على الصفحات الرياضية ليقرأها حفيده بعد عودته من المدرسة ، وغير مسموح لأحد بمطالعتها قبله ، حتى أمه زينب لا يسمح لها والدها بذلك ، وإذا كان ولابد فعليها ألا تغادر الحجرة بتلك الصحف .

ولأن الحفيد إسماعيل يشجع فريق « الزمالك » ، فقد كان الحكيم يتخذ من ذلك مناسبات لمداعبته واستفزازه فى بعض الأحيان حتى لا يلحظ أنه يسخر منه أو يتضاحك عليه ، فيتخذ الحكيم جانب « الفريق الأهلى » ويتظاهر بتشجيعه ، وقد اتهم الحفيد ، كابتن الأهلى ، محمود الخطيب ، بأنه السبب فى إقناع جده بتشجيع « الأهلى » ، بعد أن قام بزيارته فى مكتبه !

وحين يهزم « الأهلى » ، « الزمالك » ، يتلقى الحفيد لوم وتقريع جده ، كلما رآه يمارس شقاوته ، أو يعلو صوته على أخته « مريم » عندما يطلب منها شيئًا فلا تجبه إليه ، بحجة أنها مشغولة فى المذاكرة ، فيسكته جده بمعايرته بهزيمة فريقه ، ويقول له :

هو انت لك عين تتكلم والزمالك خيبان وانت خيبان ؟ » .

أو يقول له حين يفوز « الأهلى » على « الزمالك » بالدورى : ابك على خيبتكم .. بقى لك سنة تقوللى زمالك .. زمالك .. وفى النهاية الأهلى هو الذى أخذ الدورى » . فيبرر الحفيد هزيمة فريقه بأن اللاعب الفلانى لم يشترك فى المباراة ، ولو كان موجودًا مع فريقه ما انهزم ، أو أن الحكم لم يكن منصفًا ، أو أنه سوء حظ لازم اللعيبة .

ولكن الحكيم يقول لحفيده : الخلاصة إن فريقكم لا يعرف كيف يلعب لأنه لم يعرف كيف يتدرب .. وعندما يجد الجد حفيده يرتدى ملابس الرياضة الحمراء يقول له :

مادام انت زملكاوى .. فلماذا ترتدى ملابس الأهلى ؟

أما إذا فاز الزمالك ، فإن الحفيد يجد فرصته ليغيظ الحكيم ، متشفيا فيه اعتقادا منه أنه أهلاوى ، فيقول له :

هل رأيت ياجدو .. الزمالك فاز وغلبكم » .

فيصمت الحكيم مخفيًا ابتسامته ، متظاهرًا بالهزيمة وكأنه لا يستطيع تبريرها .

وأحيانًا كانت تحدث مثل هذه المناقشات الكروية بعد مشاركة الحكيم لحفيده فى مشاهدة ما تشات الكرة على شاشة التليفزيون خاصة تلك التى يتنافس فيها الزمالك مع فريق أجنبى ، ويرى كيف يهتف الجمهور ويصرخ ويقوم ويقعد ، ويرقص ويؤلف الأناشيد والأغانى ، عند إحراز أى « جون » ، وكيف يصبح اللاعب فلان ، أو اللاعب علان « بالجون » الذى سدده فى مرمى الخصم ، حديث الناس وتعليقات الصحف لأيام متوالية ، وكأن هذا اللاعب « بالجون » الذى أحرزه قد حل مشكلة من مشكلات مصر .

ويرى الحكيم فى حفيده وجيله ، نتاجا لهذه السياسة ..

وكان كثيرًا ما ينشغل بالفكر والتحليل والتأمل وهو يشاهد مع حفيده ما تشات الكرة التى يظل سارحًا عنها أغلب الوقت ولا يبدى أى انفعال من تلك الانفعالات الصاخبة التى يبديها الجمهور فى الملعب ، وتنتقل عدواها الهستيرية إلى حفيده الجالس بجواره ، ولا يفيق الحكيم من تأملاته ، أو يخرج منها إلا على نهاية المباراة ، فيداعب حفيده طبقًا لنتيجتها ، ويسعده أن يخسر الفريق الذى يشجعه الحفيد ، حتى يكون هناك مجال لمشاكسته ومعايرته بهزيمة فريقه ، فى محاولة منه لتهدئة انشغاله بالكرة إلى هذا الحد .

فها هو الفريق الذى يتعصب له قد نالته الهزيمة ، فلا داع لأن يشجعه ويشغل نفسه به طوال العام ، ثم تخيب آماله فيه .

هذه المعانى وغيرها مما يريد الحكيم أن يصل بها إلى عقل حفيده ، ولكن تأتى النتيجة عكسية ، فالحفيد يزداد تعصبًا لفريقه وتعاطفًا معه ، ومبررًا أخطاءه .

* * *

وإذا ما انفض « مولد » الكرة ، نصب الحفيد ، مولد « الكاراتيه » ، وكانت أيامها موضة أفلام « بروس لى » سائدة ، والحفيد معجب بهذا النموذج للإنسان البطل الذى يدافع عن نفسه وينتصر على الأشرار بقوته التى يظهرها بممارسة « الكاراتيه » كوسيلة لإثبات بطولته ، ولذلك كان الحفيد يحاول أن يقلده فى حركاته وصرخاته التى تملأ البيت وتزعج الحكيم وتقلق راحته ، فما يكون من الحكيم إلا أن يلعن « بروسلى » هذا أو يشتمه لأنه السبب فى هذا الازعاج الذى يسببه له حفيده ، وفى إحدى المرات التى كان يزور فيها الحكيم ابنته فى الاسكندرية حينما كانت لا تزال تقيم هناك أراد الحكيم أن يمارس مع حفيده لعبة الكاراتيه ليهزمه فيها عله بعد ذلك يخجل من نفسه ويتراجع عن هذه اللعبة العنيفة ، ولم يكن الحكيم يظن أن حفيده إسماعيل ذلك الطفل الذى فى المرحلة الابتدائية يستطيع أن يوقعه هو « ابن الثمانينات » و « يشنكله » ويكسبه من أول جولة فى « الكاراتيه » بل من قبل أن تبدأ بينهما جولة ، وكان من الممكن أن يصاب الحكيم فى هذه المغامرة التى قلبت نتيجتها كل حساباته عن قدراته وقدرات حفيده .

ونهض الحكيم سليمًا من وقعته التى كانت لحسن الحظ على « مرتبة السرير » التى كانت قد فرشتها ابنته زينب على الأرض لتنام عليها هى وابنتها مريم بعد أن تترك حجرتها لوالدها لينام على سريرها أثناء فترة

زيارته لها بالإسكندرية حينما يترك حرارة القاهرة إلى نسيم عروس البحر الأبيض ، ورغم ما حدث للحكيم مع الكاراتيه فقد كان يهتم بمجلات الكاراتيه التى يحب حفيده الاطلاع عليها ، ويحضرها له . وأذكر فى إحدى المرات حينما كنت بمكتب الحكيم فى « الأهرام » أنه أخرج ورقة مكتوبًا عليها تاريخ ورقم أحد أعداد مجلة « الكاراتيه » التى فاته الحصول عليها لحفيده ، وأعطى الورقة لأحد زواره الذى يعرف قدرته على الحصول على مثل هذه النوعية من المجلات ، وقال له مشجعًا سرعة إحضارها « سأعمل لك دعاية عند حفيدى » .

وبالرغم من ذلك الاهتمام من الحكيم بحفيده إسماعيل وبهواياته فإن الحفيد لا يسكت عن إفزاع جده شأن كل الاطفال الذين يجدون استمتاعًا حينما يشعرون أن ضجيجهم له رد فعل لدى الكبار سواء كان رد الفعل هذا بالسلب أو بالإيجاب . فرحًا وسعادة وتشجيعًا ، أو نهيًا وزجرًا وتقريعًا ، وكثيرًا ما يقوم الأب أو الأم بمداعبة الطفل حتى يبدو على أحدهما التظاهر بالخوف من حركة يبديها الطفل ، فيكررها سعيدًا منشرحًا ظنًا منه أنه بالفعل يخيف من يداعبه ، ولكن أحيانًا ما يقترن موقف المداعبة بذكرى مؤلمة فيصبح تكرارها ولو من باب اللعب .. مفزعًا فزعًا حقيقيًا ، كان مثل ذلك يحدث للحكيم عندما يمسك حفيده « بمسدسه اللعبة » ويخيف به جده الذى ينتابه الفزع ، كأن حفيده هذا عصابة تحوطه بمسدساتها ، ويقول له « يا إسماعيل أنزل مسدسك .. أنا لا أحب العنف » .. بل حتى مجرد أن يقوم الحفيد بحركة تهويش لجده يبدو على الحكيم الفزع ، لأن ذلك يعيد إلى ذهنه ذكرى شبيهة كانت أيضًا بسبب اللعب والتهويش وكادت تضيع حياة وحيده إسماعيل بسببها ، لولا أن أجله لم يكن قد حان بعد ، فقد كان لإسماعيل الابن « بندقية رش » أخذتها منه أخته زينب لتلعب بها معه وتقوم بتهويشه بإطلاقها بما يحدث

صوتًا يزعج ولا يصيب ، وفجأة تذكر إسماعيل أن البندقية محشوة « بالبارود » فقال لأخته مفزوعًا وقد أمسكت بالبندقية لتضبط فوهتها على وجهه « حاسبى .. حاسبى .. إوعى تضربى » ولكن « طلقة البارود » فى هذه اللحظة كانت قد انطلقت ، ولكن للطف الله مرت بجوار إحدى عينى إسماعيل الابن ، ولكن ذلك لم يمنع من أن تنال « زينب » علقة ساخنة من والدتها ، إضافة إلى الرعب الذى أصابها نتيجة شعورها أن أخيها كانت ستحدث له وللأسرة مأساة بسببها .. ومنذ ذلك اليوم وهى ووالدها ينتابهما فزع حقيقى بالوهم من مسدسات اللعب لاقترانها بذكرى يوم كانت ستحدث فيه مأساة ، ولذلك يكره الحكيم العنف ويمقته سواء كان حقيقة أو لعبًا ، على أرض الواقع ، أو تمثيلًا على شاشة التليفزيون أو من خلال شرائط الفيديو التى يستأجرها حفيده من نوادى الفيديو .

وفى أحد الأيام التى جاء للحفيد زميلاه أحمد وحمادة يزورانه على غير موعد أراد أن يرحب بهما على طريقته ويستأجر لهما شرائط جديدة للكاراتيه ليتفرجوا عليها ، ولم يكن مع الحفيد فى ذلك اليوم « فلوس » ، ولم تكن أمه وأخته بالبيت فقد خرجتا لقضاء حاجة لهما ، وليس بالبيت سوى مديرته « منصورة » ، وليس معقولًا أن يطلب منها نقودًا ، فلم يجد أمامه سوى جده يطلب منه ستة جنيهات ، فانتهزها الحكيم فرصة ليعطى حفيده « موشحًا » ، أو درسًا ينهاه به عن ذلك العبث قائلًا له : يابنى ابحث لك عن حاجة تنفعك .. « الفيديو » سيفسدك .. هى البلد ناقصة « فيديو » .

والطفل يسمع ولا يعى مما يقوله جده شيئًا ، فما علاقة البلد بالفيديو ، وما علاقة كل ذلك بالستة جنيهات التى طلبها لاستئجار شرائط فيديو ؟ أما علاقة توفيق الحكيم نفسه « بالفيديو » فليست بأفضل من رأيه

فيه ، فعندما حاولت ابنته أن تجعل له نوعًا من الاندماج بينه وبينهم لكى يشاهد معهم فيلمًا على الفيديو ، أغرته بفيلمه « عصفور الشرق » الذى يظهر هو نفسه فى بعض مشاهده ، باعتباره يعرض لمرحلة من حياته الباريسية وحياته كنائب فى الأرياف ، إلا أنه لم يستطع استكماله حتى النهاية .

ولكنه سأل حفيده عما إذا كان فيلم « غاندى » ، موجوداً بنادى « الفيديو » الذى يتردد عليه ، فنفى له أن « تكون مثل هذه النوعية من الأفلام موجودة ، فقال له :

ألا يوجد فى ناديكم سوى أفلام العنف والكاراتيه ؟!

ولما طلب من ابنته أن تأتى له بفيلم « غاندى » الذى كانت قد شاهدته بالإسكندرية ، فإنها لم تنجح فى الحصول عليه ، فلم يكن بهذا الفيلم الذى يحكى قصة الزعيم الهندى الكبير ، ما يغرى نوادى الفيديو باقتنائه ، وعندما شكا الحكيم ذلك ، لصديقه يوسف جوهر لم يتعجب وقال له :

مرآة الفن عندنا تعكس شخصيات لها العجب .. الزبال والفران ، والكناس والقشاش ، والقشاط والحشاش .. أفلام الغيبوبة .. ما أثقل الكوابيس الجاثمة على صدر الصحوة . ولكن مع ذلك فإن الحكيم لا يفقد الأمل ويقول لصديقه :

لا تحزن .. انظر إلى تمثال نهضة مصر لتعرف أن صدر مصر قوى .. تنفست عبر العصور برئة سليمة .

* * *

وإذا كان الفيديو ، لا يروق للحكيم ، فإن التليفزيون صديقه رغم أنه لا يعجبه ، فهو يفتحه فى حجرته لمجرد أن يكون معه « أنيساً » فيجد فى برامجه التى لا تسره شيئاً يجره إلى السرحان فى موضوع مختلف ، يكون فى بؤرة الشعور ، بينما برامج التليفزيون على هامش ذلك الشعور ، ولكن

عندما يعرض له مسلسل ، ويبدأ فى متابعته ، فإنه ينتقده بشدة ، فلا الحبكة القصصية التليفزيونية تعجبه ، ولا تسلسل الأحداث يرضيه ، ويروح بعقليته الروائية الفنية يبنى جسماً جديدا للرواية ، وأشد ما يضايقه هو ذلك التطويل لمسلسل لا تحتاج قصته ولا تحتمل ذلك المط ، فتقول له ابنته : معنى كلامك يا بابا إن المؤلف يعمل مسلسل على حلقة واحدة وينتهى ؟ وتضيف : إن المسلسلات نوع من قرقزة اللب .. تسلية يعنى .

ولكن الحكيم يرى أنه يجب أن يكون لكل شيء هدفا ومعنى .

وعندما عرضوا له يوميات نائب فى الأرياف مسلسلاً باسم « مكتوب على الجبين » ، غضب وقال :

لاشيء يفلح لى فى التليفزيون .. وأنا أفهمتهم أن من يريد أن يفشل فليقدم عملاً من أعمالى .. ولكنهم لا يصدقوننى .

ومن أمتع الأوقات التى يقضيها الحكيم أمام التليفزيون ، عندما يكون هناك فيلم لنجيب الريحانى ، ويقول إن هذا الفنان الميت ، يضحكه أكثر مما يضحكه الممثلون الأحياء ، لدرجة أنه يلعن المسئول عن إهمال تسجيل كل أعمال هذا الفنان الذى يضحك ويضحكنا ، ويبدع ويمتعنا وهو فى قبره عظام نخره ، ويرى أن هذا الميت أكثر حياة من هؤلاء الأحياء . ولكن ضحكات الحكيم على فيلم للريحانى ، ينكمش أثرها حينما يرى إهمالاً فى البيت بعد أن ينام كل من فيه ، فتركوا صنبوراً مفتوحاً ، أو مصباحاً كهربياً مضاءً من غير لزوم ، أو إسرافاً فى أى ناحية من نواحى الحياة التى تمارسها أسرته .. إنه يغضب ويثور ، ويحاول أن يعلمهم كيف يكونوا اقتصاديين فى استهلاكهم .

فمثلاً عندما يجد بالحجرة التى يذاكر فيها حفيده أو حفيدته ، ثلاث مصادر للإضاءة :

المصباح العادى ، مصباح الأباجورة ، مصباح نيون .

فإن تعليماته لها هى الاكتفاء بمصدر إضاءة واحد فقط من هذه المصادر الثلاثة ، ويقول : إن البلد مديونة .. والدولة تدعم الكهرباء .. ويجب أن نقدر ظروفها .. ونحارب مظاهر الإسراف فى حياتنا ونرشد الاستهلاك .

وإذا كانت ابنته تعى هذه التعليمات وتنفذها ، فإن حفيديه فى أغلب الأحيان يكونان فى واد آخر ، فما لها والدولة وظروف البلد وترشيد الاستهلاك .. إن هذه أمور أبعد ما تكون عن عالمها ومداركها ،ولذلك يكتشف الحكيم كثيراً ، كأنه يحرث فى البحر ، فيجد حفيديه قد غلبهما النوم . وتركا التليفزيون والفيديو مفتوحين ، وغالباً ما تتلقى زينب اللوم والتأنيب ،ولكن الحكيم يحرص فى اليوم التالى بعد عودة حفيده إسماعيل من المدرسة أن يبلغه غضبه منه لأنه فى نظره يعتبر ، رجل البيت المسئول الذى يجب أن يتعود تحمل مسئولياته مهما كان صغيراً ، ويقول له « أنا زعلان منك يا إسماعيل » ، فيسأله الحفيد عن السبب فيخبره بنومه قبل أن يطفىء الفيديو والتليفزيون وهذا غير معقول وغير مقبول ، فيعده الحفيد أن ذلك خطأ لن يتكرر ، ولكن الحكيم لا يثق إلا أن يتأكد بنفسه فيظل ساهراً بحجرته أمام التليفزيون حتى نهاية الإرسال ثم يغلقه ويقوم بالتفتيش على البيت كله ليطمئن إلى أنه ليست هناك « حنفية » يتسرب ماؤها ، أو « لمبة » يضيع ضوؤها ، أو « بوتاجاز » لم يحكم غلقه ، ثم يمر على حجرة حفيديه ليتأكد من أنهما لم يتركا التليفزيون والفيديو دون إغلاقهما ، كما لا ينسى أن يمر على إبنته ، وإذا اكتشف أن أحداً لم ينم بعد ، يقول له « تصبح (أو تصبحين) على خير » ، ثم يأوى هو إلى فراشه بعد أن يكون قد اطمأن على البيت ومن فيه .

وفى الصباح يوقظ حفيديه للذهاب إلى المدرسة : « قم يا إسماعيل الساعة سته .. سيارة المدرسة زمانها فى الطريق » .. فالحكيم حريص على انضباط حفيده فى ذهابه إلى مدرسته ، فهو يراه مجتهداً ويعجب لذلك

منه ، وقد أعجبه كذلك ما فوجىء به من حفيده حينما أضاف إلى هواياته المزعجة هواية أخرى لكنها هادئة ، إنها هواية جمع طوابع البريد ، وراح ينفق على هذه الهواية بسخاء فيشترى الألبومات والطوابع ، فرأى الجد أن يشجع هذا الاتجاه الجديد لدى حفيده فكان يجلس لينزع طوابع البريد من الخطابات التى تصله من قرائه من مختلف البلاد العربية والأجنبية ، ويعطيها لحفيده مشجعاً إياه على الاستمرار فى هذه الهواية قائلاً له : إنها هواية الملوك » ، وكانت الأم تشجع إبنها هى الأخرى وتقطع له قصاصات الصحف أو المجلات التى تتحدث عن قصة طوابع البريد ، إلى درجة أنها كانت ترسلها له فى حكايات حين يكون بالإسكندرية مكانه المفضل الذى يحلو له أن يقضى أجازاته فيه ، ولكن يبدو أن هذه الهواية - جمع الطوابع - لم تكن إلا نزوة عابرة من نزوات الأطفال لم يستمر فيها الحفيد أكثر من ثلاثة شهور ، بينما جده لايدرى بذلك ، وظل حتى وفاته يجمع له الطوابع ، فتأخذها أمه وتحتفظ بها دون أن تخبر والدها بإهمال حفيده لهوايته الجديدة حتى لا تجعله يشعر بضيق أو غضب .

وكانت الإبنة تحاول تعليم والدها هواية لعب « الكوتشينة » لكنه لم يستطع أن يستوعبها لاعتمادها على الأرقام التى لا يجيد قراءاتها ، وكذلك لم تفلح زوجته من قبل أن تجعله يتعلم لعبة « الطاولة » ، رغم تعمدها أن تخسر له .

ولم يفلح الحكيم فى تعلم أى هواية ، فرياضته هى العقل ، والمشى ، فعقله متحرك دائما بالتأملات والأفكار ، وقدميه متحركتان كلما أمكنه أن يحركهما ، لأنه لم يكن يطيق الجلوس كثيراً ، وإن كان قد اضطر إليه لظروف صحية ، ولذلك كان يتعجب كثيراً عندما يتذكر صديقه مصطفى أمين ويتساءل كيف قضى سنوات سجنه بغير حركة .

فلم يكن الحكيم يتحمل السكون حتى أنه فى بعض الأحيان يقوم

لإحضار الأشياء التى طلبها قبل أن يحضروها له ، كما حدث ذات يوم من شهر رمضان بعد أن خرج من المستشفى فى بداية مرضه ، حيث كان ينام بعض الوقت وهو جالس على كرسيه كنصيحة الأطباء له كبديل للسرير ، حفاظاً على سلامة تنفسه ، لذلك كان الحكيم يفضل أن يغمض عينيه بعد العصر وهو بين الغطة والنوم فى شبه إغفاءه ، حتى ينطلق مدفع الإفطار ، وهو لم يكن مسموحاً له بالصوم فى مثل هذه السن المتقدمة وما يصاحبها من أمراض تقتضى تناول الأدوية فى مواعيد دقيقة ، ومع ذلك كان لا يأكل كثيراً .. كان يكتفى بقطعة « كيك » وكوب من الشاى ، أو بعض السوائل التى تعينه للحصول على الطاقة التى تحفظ له تماسكه الجسمانى ويقظته الصحية ، فكانت إبنته زينب عندما يحين موعد الإفطار تحضر له زجاجة مشروب بارد من الثلاجة الموجودة بحجرته ، ولكن الحكيم فى أحد تلك الأيام الرمضانية وقد ضرب المدفع وأذن المغرب لم ينتظر حضور ابنته فحاول القيام بنفسه نحو الثلاجة لتمشية قدميه ، ولا تزال عينيه نصف مغمضتين والحجرة غير مضاءة بعد ، فكانت النتيجة هى وقوع الحكيم بين كرسيه ومكتبه ، فى نفس الوقت الذى كانت زينب قد حضرت لتفتح الثلاجة ، فتركتها ، صارخة لوقوع والدها على الأرض ، وسارعت لتعاونه على النهوض ، واتضح بعد أن استدعت له الطبيب « حسين عبد الفتاح » كبير مستشارى العظام بقصر العينى وأجرى له الأشعة اللازمة ، أن الحكيم قد أصيب بكسر فى أعلى الذراع اليسرى ، وتم تحديد مكان الكسر وأمكن على إثرها إعادة العظمة المنقولة إلى مكانها .

ورغم ما قد تكون قد سببته تلك الوقعة للحكيم من آلام إلا أنه لم يشكو أو يتأوه أو يظهر تألمه حتى لا يزعج أحداً من أفراد أسرته ، وقد ورث منه ابنه الراحل إسماعيل قدرته على تحمل الآلام ، ولكن حينما

يحدث أى شيء ولو بسيط لأحد أفراد أسرة الحكيم الجديدة (ابنته وحفيديه) كان الحكيم ينزعج ويظل قلقا لا يهدأ حتى يتم علاجه ، فلو حدث مثلاً أن « عطس » أحدهم ، فإن الحكيم يفرض على جميع من فى البيت أن يتناولوا أدوية الزكام قبل أن يناموا حتى لا تنتقل العدوى إلى بقية أفراد الأسرة ، ولابد للجميع أن يطيعوا الأوامر كأنهم مجندون بالجيش .

وكثيراً ما استغل حفيدى الحكيم خشيته من « الزكام » فيمثلان عليه إصابتهما به .. يحدث ذلك عندما يجمعهما لنصحهما وإعطائهما دروساً ومواعظ فى الأخلاق وطاعة أمهم وعدم الإسراف فى استهلاك الكهرباء .. إلخ .. فلا يتحملان ،ويصابان بالملل شأن جيلهم أو أى جيل لا يطيق نصائح جيل سبقه ، فما بالهما وبينها وجيل جدهما ثلاثة أجيال ، ولا يستطيع حفيدى الحكيم أن يخبراه أو يردا عليه بمللهما ، وفى نفس الوقت لا يستطيعان أن يتركاه يتكلم وحده ، ولذلك لا يجدان وسيلة للهروب من تلك النصائح سوى اتباع الشقاوة واستخدام الأسلحة التى يستسلم أمامها جدهما ، ومنها سلاح « العطس » ، عندما تشعر مريم وإسماعيل بالملل ينظر كل منهما للآخر دون أن يشعر الحكيم ، إشارة إلى أنه لم يعد أمامهما مفر سوى أن يتظاهر أحدهما بإصابته بالزكام ، وعادة ما يتولى هذه التمثيلية « إسماعيل » « ١١ سنة » فيقوم بافتعال « العطس » ليوهم جده أن عنده زكام ، فيتوقف الحكيم عن الاسترسال فى نصائحه – وهذا هو المطلوب – ويقول : يا ولاد أتريدون أن تنقلوا إلىَّ العدوى ؟! ويقوم الحكيم مسرعاً وقد تحول من جد عجوز إلى شاب يقفز هرباً من الزكام كأنه حصان فتى ، وسط ضحكات حفيديه ودهشتهما ، ويوم أن كان الحكيم بمستشفى المقاولون حضرت إليه القنانة سهير المرشدى وحدها حينما كانت تتردد عليه هى وزوجها للانتهاء من وضع

اللمسات الأخيرة لمسرحية « إيزيس » التى ستقوم ببطولتها ، فقال لها : أين كرم مطاوع ؟ ، فقالت له إنه يقف خارج الحجرة لأن عنده « برد » ، فيطلب منها أن يظل خارج غرفته ولا يدخل عليه إلا حين يشفى من نوبة « البرد » التى أصابته . ولأن المدارس تفتتح فى فصل الشتاء ، وغالباً ما يحلو النوم فى الصباح وقت الاستيقاظ للذهاب إلى المدرسة ، فإن الحفيدين ، يفتعلان الإصابة بالانفلونزا ، فيطلب الحكيم من أمهما ألا تجعلهما يذهبان إلى المدرسة حتى يستريحا ولا يتضاعف مرضهما ، ولكن الأم كانت تفهم مكر أبنائها فتصر على ذهابهما إلى المدرسة وتقول لوالدها : بصراحة يا بابا هم يتمارضون حتى لا يذهبون للمدرسة » ، ولكن الحكيم لا يصدقها ويصمم على عدم مغادرة حفيديه لسريريهما وهما على حالتهما هذه فى هذا الوقت المبكر من صباح الشتاء ، وما بين إصرار زينب على سلامة أبنائها وإصرار الحكيم على مرضهما ، وهو يقول لها أتريدين موتهم » ؟! تنجح حيلة الحفيدين ويحصلان بسب « عطسة » افتعلاها على أجازة من المدرسة ثلاثة أيام ، ويومين نقاهة ، حسب تعليمات الحكيم الصحية لسلامة حفيديه ، ويا ويل إسماعيل حينما يراه جده « بالشورت » أو « المايوه » فى « عز » برد الشتاء ، فالحفيد معتاد على جو الإسكندرية ولكن جده عندما يراه هكذا ، يكاد يموت عليه من الخوف ويقول له صارخا فيه « أنت بهذا تعرض نفسك للهلاك .. ستأتى لك أنفلونزا . ستأتى لك نزلة شعبية » .. ولكن إسماعيل كأن الكلام ليس له ، وكثيراً ما يحاول مداعبة جده إلى حد الإستفزاز ، فعندما ظهرت فى إحدى السنوات موضة البنطلونات المتسعة بشكل غير عادى - فكم يجن مصممو الموضة فيخرجون بتقليعات تثير الجنون - جاء الحفيد يرتدى بنطلونا من هذه البنطلونات ودخل على جده الذى راح ينظر إليه بدهشة واستغراب ، ولم يصدق إلا أن حفيده قد ارتدى بنطلون أبيه فقال « انت

لا بس بنطلون أبوك ولا إيه » ؟! فقال له الحفيد « أبداً إنه بنطلونى وهذه هى الموضة » ، فقال الحكيم والدهشة تكاد تعقد لسانه : هذه هى الموضة ؟! فيؤكد الحفيد نعم هذه هى الموضة » ، فأعاد الحكيم نفس سؤاله وكرر حفيده نفس الجواب ، والحكيم ينظر إليه باستغراب ولا يصدق ما يراه ،.. ولكن ذات مرة استفز الحفيد ، جده إلى درجة جعلته يمد يده عليه لأول مرة .

* * *

ذات يوم كان الحكيم يجلس على سرير ابنته زينب ومعها الحفيد ، وشقيقه الصغير محمد الذى جاءت الشغالة الجديدة « نجاح » لتأخذه من أجل إطعامه طعام العشاء ، ولكن شقيقه إسماعيل أمسك به وراح هو والشغالة يتجاذبانه ، فهو لا يريد لشقيقه أن يكون فى رعاية شغالة لأنها فى نظره تأخذه وتهمله ، فصمم فى ذلك اليوم على ألا يذهب شقيقه مع الشغالة التى كانت هى الأخرى مصممة على القيام بواجبها تجاه الطفل ، وكلمة منه ، وكلمة منها ، ارتفع خلالها صوته ، مما أثار جده وجعله يضربه « بالفوطة » على ظهره مع « قلمين » على وجهه وهو يقول له بانفعال « اسكت .. بطل زعيق .. انت تاعب أمك ولا يكفيك غير إنك تطفش الشغالة » . وخرج الحفيد يبكى ، بينما نام الحكيم على السرير شاعراً بالتعب ، بينما اتجهت زينب بوجهها إلى الأرض لتخفى ضحكها المكتوم .. فما والدها قد ضرب ذلك الضرب الذى يجعله يشعر بالذنب والاستلقاء على السرير متعباً وهو يندم على مديده على حفيده ، كما أن ضرب الحكيم لم يوجع حفيده ليبكى ، فلطالما ضربته أمه عقاباً له على شقاوته أو إخلاله بنظام البيت ، فهى تحاول ايجاد التوازن بين ديمقراطية والدها مع أحفاده ، بوجود نوع من الردع الذى ترى ضرورة استخدامه فى بعض الأحيان حتى لا يشعر أبناؤها أن ديمقراطية جدهم معهم تعنى الفوضى ، فهو يمثل

جانب الرفق والرحمة ، فى الوقت الذى تمثل هى فيه جانب الشدة والحزم .. فرغم أنها أم لهم فهى أب لهم أيضا بعد غياب والدهم عنهم بانفصالها عنه ، ورغم ما يناله الحفيد من ضرب موجع ومؤلم من أمه إلا أنه لا يتأثر أو يجعل من ضربها له قضية ، ولكن حين ضربه جده راح يجهش بالبكاء واستمر فى بكائه المتصل بعد أن ذهب إلى حجرته ، فدخلت عليه أمه وقالت له وهو لا يزال يبكى : هل تريد إنك تفهمنى إن ضرب جدك لك أحزنك ؟

فقال الحفيد وكلماته تكاد تحبسها دموعه : أنا لم أحزن يا مامى لأنى لم أحس بضربه لى لأن لو دفعت جدى بيدى سيقع (وقد سبق أن فعل ذلك حين أراد أن يلاعبه كاراتيه) وأضاف الحفيد لوالدته : لكن المشكلة إنه غضب منى وضربنى » . فمشكلة الحفيد ليست فى أن ضرب جده قد آلمه ولكن الذى آلمه هو أن يغضب منه جده وتمتد يده عليه .. ذلك ما كبر فى نفسه .. إنه يحب جده ويقدره ولم يكن يتصور مهما حدث منه أن يصل الأمر إلى هذا الحد ، وذلك ما أثر فى الحكيم أيضا وأتعبه نفسياً فلم يكن يرغب أن تتطور المسألة إلى هذه الدرجة ، فهو يجد فى حفيده عوضا عن ابنه الراحل ، ويتمنى أن يراه رجلاً ليعوض أمه عن معاناتها ، ومن أجل ذلك اضطر إلى زجره عن التطاول على الشغالة التى أتى بها لتريح ابنته من شغل البيت ، وتتفرغ لرعاية أبنائها ومتابعتهم فى دراستهم ، والحكيم يعرف المصاعب التى تكتنف الحصول على شغالة فى هذه الأيام الصعبة ، ومن الممكن أن تجعل الشغالة الجديدة من تطاول حفيده عليها قضية وحجة تترك بسببها المنزل ولا أحد يلومها ، والحكيم لم يضرب حفيده بالمعنى الذى يمكن أن يسمى ضرباً وإنما هو نوع من التعبير عن سخطه على حفيده وإظهاراً لغضبه وضيقه من موقف معين ، نسى خلاله حفيده وجوده وراح يرفع صوته على الشغالة مما قد يتسبب فى تركها البيت ، وما قد

يترتب على ذلك من متاعب لأمه هى فى غنى عنها ، فكان ضرب الحكيم لحفيده أهون الضررين ومع ذلك تأثر ، وتأثر حفيده كما لم يتأثر من قبل ، وواصلت والدته زينب التحدث إليه وهو لا يزال يبكى : هل المفروض ان جدك لا يضربك ؟

فصمت الحفيد عن الرد وإن لم يصمت عن البكاء المتهدج فقالت له أمه : لو أنت ترى أنه ليس من حق جدك عليك أن يضربك يبقى هنا من حقك إنك تحزن .. أم أنت ترى أنه من حقه أن يضربك ؟

فقال الحفيد ولم تزل دموعه تتساقط تأثراً : لكن كان المفروض ان جدو يتفاهم معى .

قالت الأم : هو انت تركت وسيلة للتفاهم .

قال الحفيد ولا زال أثر البكاء واضحاً فى نبرات صوته : يعنى إيه ؟

قالت الأم : لو انت تفاهمت مع البنت الشغالة كان هو تفاهم معك .. لكن أنت تطاولت بالكلام معها فمن حقه أن يتصرف معك بما أغضبك .

فقال الحفيد بعد أن نفذت حيلته فى الرد على منطق أمه : أنا عموما لن أكلم جدو مرة أخرى .

قالت الأم وقد نجحت فى إقناع إبنها بخطأ موقفه : إنت حر تكلمه أو لا تكلمه ولكنك فى النهاية غلطان .

وظنت زينب أنها الخصومة بين الحفيد وجده ، ولكن الحكيم استيقظ مبكراً كعادته فى الساعة السادسة صباحاً « كالمنبه » ليوقظ حفيديه مريم وإسماعيل ليذهبا إلى مدرستيهما ، فقد أوكلت أمهما إليه مهمة إيقاظهما كل صباح راجية منه أن يدعها نائمة لأنها تكون طوال الليل ساهرة مع حفيده الصغير « محمد » الذى يسبب لها قلقاً ، شأنه شأن الأطفال فى مثل عمره (سنة ونصف) حتى ينام وتنام معه أمه فى ساعة متأخرة مما تحتاج معه لساعات أخرى من الصباح تعوض بها ساعات نومها المضطربة .

ولما عاد الحفيد إسماعيل من مدرسته وجد ، جده قد فتح له صفحات الصحف كعادته على صفحات « الرياضة » التى يحبها ، ولما دخل الحفيد ليأخذ تلك الصحف استوقفه جده ، وانتهى التوتر بينهما ، ولما رأتهما زينب هكذا ، قالت لابنها : هل تصالحت مع جدك ؟ فقال لها مبدياً شيئاً من الدهشة لمثل هذا السؤال : وهل كنا متخاصمين ؟ !

ويعود الحفيد لشقاوته كأن شيئا لم يكن ولا تسلم من عبثه عجلة جده الطبية التى يستعملها فى تحريك قدميه كنوع من العلاج الطبيعى حسب رأى الأطباء ، فينتهز الحفيد فرصة خروج جده إلى مكتبه بالأهرام ليلعب بعجلته ، ولكن الحكيم يكتشف أن حفيده لم يدع عجلته كما هى ، فهو يحفظ رقم « الكيلو متر » الذى توقفت عنده العجلة فى آخر مرة استعملها فيها ، ولذلك عندما يعود ولا يجد « عجلته » مضبوطة عند الرقم الذى سجلته يعرف أنها لم تسلم من عبث حفيده « العكروت » كما كان يناديه فى حالة مداعبته له ، وهى كلمة يقولها لأحفاده ، الذين لا يدرون أهى « لفظة » ذم أم مدح أم هى خليط من هذا أو ذاك . ولا يعارض الحكيم أو يمانع فى أن يمارس أحفاده « اللعب » شريطة ألا يشغلهم ذلك عن واجباتهم المدرسية ، ولكن أمهم لا تنسى ذلك فهى تحرص على استفادتهم بالعام الدراسى منذ بدايته ، فتشترى لهم كل أدواتهم المدرسية التى تكفيهم طوال السنة الدراسية ولكنها لم تكن تكفيهم .. فما يثير عجب زينب من أبنائها وتساؤلها : كيف يستهلكون كل أدواتهم المدرسية بهذه السرعة ؟! ولكنهم لم يكونوا يستهلكونها .. لقد كانت تضيع منهم .. أين ؟ لا تدرى ولا هم يدرون ، ولكن الملفت للانتباه أنه إذا احتاج إسماعيل أو مريم إلى قلم أو مسطرة أو « براية » أو « ممحاة » – استيكة – ، كان جدهم يعطيها لهم ، فمن أين يأتى بهذه الأشياء ؟.. إن كل الهدايا من أجندات وأقلام حبر أو رصاص مما تهديه

المكتبات إلى الحكيم منقوشاً أو مكتوباً عليه إعلانات عنها بمناسبة رأس السنة الميلادية ، لا يحتفظ الحكيم بشيء منها ماعدا أجندة الأهرام التى يستبقيها لنفسه رغم أنه لا يستعملها ، فالحكيم لا يستعمل الجديد ولا يحب الاحتفاظ به ، إنه يهديه لأحفاده أو ما يفيدهم منه ، ويهدى بعضه للمقربين منه ، فمن أين يعطى الحكيم أحفاده ما يحتاجون إليه من أدواتهم المدرسية ؟

لقد اعتاد الحكيم المرور فى حجرة أحفاده بعد ذهابهم إلى المدرسة وإذا وجد أدواتهم المدرسية ملقاة فى غير المكان الذى يجب أن يحتفظوا فيه بها ، فإنه يجمعها ويحفظها هو بمكتبه إلى أن يحتاج أحفاده إلى شيء منها حينما يجدون أن الرصيد الذى تحتفظ به أمهم لهم قد نفذ ، ومن ثم تصبح مضطرة لشراء أدوات مدرسية جديدة ، وهى تضرب كفا على كف متسائلة عن كيفية استهلاك ما اشترته وهو يكفيهم سنة دراسية كاملة ، فلا يمكن أن يكون إسماعيل ومريم قد استهلكوها ، فلا يبقى إلا الاحتمال الثانى بأنهم أهملوها وأضاعوها ، فيظهر حينئذ الحكيم ليعطى حفيديه ما يحتاجون إليه من أدوات مدرسية ، مع شكرهم له وهم لايدرون أنها نفس أدواتهم التى ألقوها دون أن يحافظوا عليها فاحتفظ لهم هو بها ، واكتشفت أيضاً أن والدها كلما أتى « صابون » الشهر يتسلل من ورائها ، ويأخذ ما بين ثلاث وأربع قطع من الصابون يستبقيها بمكتبه حتى « ينفذ » ما فى البيت من صابون ، فتذهب إليه إبنته تطلب منه ما عنده من صابون وتقول له « أنا عارفه إنك أخذت صابون من الدولاب » كأنما تريد أن تسأله بذلك عن السبب فيجيبها « لكنك لا تعرفين لماذا أنا أخذت الصابون .. لأجل لما تحتاجيه تلاقيه عندى » !

وكان مما يحتفظ به الحكيم كذلك بمكتبه « البسكويت » الذى كان يتناوله مع الشاى ، كما كان يحتفظ كذلك « بالبمبونى » الذى يستحلبه

بعد الغداء كعادة يعتبرها هاضمة ، أما « البيروسول » فيحرص الحكيم على ألا ينقطع وجوده من مكتبه لاستخدامه إذا اضطره ذباب أو ناموس إلى استعماله .

كذلك كان بمكتب الحكيم ببيته ثلاثة أكواب ، يشرب فى إحداها ، ويضع طقم أسنانه فى الآخر ، أما الكوب الثالث ففائدته أو دواعى استعماله لا يعرفها سوى الحكيم نفسه ، أيضاً كان الحكيم يحتفظ بشاى وسكر بمكتبه ، والذى كان يحتوى كذلك على « البيجاما الكستور والروب » مما كان يرتديه فى البيت لمقابلة ضيوفه ، وهى من الهدايا التقليدية التى كانت تهديها له ابنته فى عيد ميلاده ، فيتظاهر بقبولها ، ويرتديها لبعض الوقت إرضاء لها ، ولكنه كان حريصاً على استعمال ملابسه القديمة حتى بعد أن أكل منها الزمان وشرب ، فيطلب منها ترميمها ، وعندما أعطاها « جاكتته » لتستدفىء بها شتاء ، وجدت أن « العتة » قد أوغلت فيها ، فطلب منها الحكيم ، أن ترسلها « للرفة » ، فغرمت من أجل ذلك خمسة وأربعون جنيها ، فقال لها : ولماذا لم تشتر بها « جاكتة » أخرى جديدة بدلا من القديمة فلم أعد أريدها ؟ فتقول له : ولكنى أريدها للذكرى .

فقد كان الحكيم لا يترك استعمال أدواته القديمة بسهولة ، فلا يفارقها حتى تفارقه ، بالاستهلاك أو عدم الصلاحية للاستعمال ، مثل ذلك القلم الرصاص الأصفر الذى منذ أن وعى حفيده على الدنيا وهو يرى جده يستعمله ، وهو متعجب من عدم ذوبانه رغم كثرة الاستعمال ، ولكن الحفيد لم يكن يعرف أن جده كان يستبدله بقلم أصفر جديد ، فيبدو لمن يراه أنه لا يذوب ولا يفنى .

واعتزاز الحكيم بالقديم لم يمنع استقباله للجديد بفعل أحفاده ، الذين لم يكن هناك أكثر منهما جديدا طبع حياته ، مما جعله يحاول أن يعوض معهم

طفولته وأبوته . وحين يستعيد ذكرياته لايرى فيها إلا اليوم الوحيد الذى يشعر فيه بجديد ، وهو يوم العيد الصغير ، والكبير ، والذى كان هو الفرصة الوحيدة لشراء ملابس جديدة له ولإخوته ، فينتقون ما يحلو لهم ، وغالباً ما تكون من الأصناف الغالية ، ولكن الأب يختار لهم ما يناسب جيبه ، ويمضى الحكيم وإخوته مستسلمين ، حتى العيدية التى كان الحكيم يحصل عليها فى طفولته وهى خمسة قروش كان يحتفظ بها طوال أيام العيد ، ثم يعيدها مرة أخرى لا ينفق منها شيئاً .

أما العيد ، فيحتفل به أحفاد الحكيم ، بالحصول منه على النقود ، فيحرصان على الاستيقاظ مبكراً ، للحصول من جدهم على « العيدية » ، بينما هو مفتقد لمعنى العيد ، فكل الأيام متشابهة لديه خاصة بعد أن رحلت زوجته ،ولحق بها ابنها ، فقد كان وجودهما يجعله يشعر بمعنى العيد وهو من المناسبات القليلة التى كانت تجعله يحفل بها ، حيث تجتمع فروع الأسرة فى بيت العائلة الكبير ، فيجلس الحكيم بينهم وتدور مناقشات وسط ضجيج الأولاد الذين يجعلون للعيد متعته وبهجته .

أما اليوم بعد أن رحلت الزوجة والابن ، فإن أيام العيد تتساوى مع أيام أخرى وتتشابه فيما بينها ، وإن كان يحرص على أن يشعر أحفاده بالعيد ، فيبسط يده معهم بالعيدية ، ثم يخرجون ، لتجلس ابنته معه بعض الوقت ليمر اليوم كأى يوم .

أما بالنسبة للأحفاد فليس كأى يوم ، فإسماعيل مثلا يحصل على عيدية كبيرة ،وصلت فى عيد من أعياد الأضحى إلى مائة جنيه ، لعل الحكيم أراد بها أن يعوض حفيده عن فلوس الرحلات التى كانت تأخذها أخته « مريم » ، بينما هو لا زال فى المرحلة الابتدائية ، والرحلات المدرسية قليلة ولا تخرج عن دائرة حدود القاهرة ، لذلك كان يطالب جده

بمساواته مع أخته ، وأن يعطيه مثلما يعطيها ، فيصمت الحكيم ، وكأن حفيده قد وضعه فى مأزق منطقى ، ولكنه يستدرك قائلاً كأنه وجد مخرجا « كل فلوس الرحلات سأعطيها لك عندما تدخل الإعدادى .. فأنا أدخرها لك .

وإذا كان العيد معروفا بعاداته ، فإن الحكيم كان ينكر هذا الذى يسمونه « عيد الميلاد » ويصر على الاحتفال به الأولاد والأحفاد ، ومع ذلك كان يحرص على مشاركة حفيده احتفاله بعيد ميلاده حيث يحضر أصدقاء اسماعيل لتهنئته وتقديم الهدايا له والتقاط الصور التذكارية معه فى جو من البهجة تظلله الزينات والبالونات وتلتهم فيه « التورتات » و « الجاتوهات » ويظل الحكيم فى حجرته إلى أن يحين موعد إطفاء الشموع فيحضر ليقبل حفيده ويطفىء معه وأصدقاءه شموع عيد ميلاده بل ويغنى معهم أغنية عيد الميلاد الشهيرة فى مثل هذه المناسبة ، ويجلس مع أصدقاء حفيده لمدة حوالى عشر دقائق يسألهم عن أحوالهم وتقدمهم الدراسى وبعد أن يطمئن عليهم يتركهم لسرورهم ثم يعود مرة أخرى إلى حجرته يسرح فى مستقبل يرى فيه حفيده رجلاً يعين أمه على مسئوليات الحياة .

الفصل الرابع

دلوعة جدها

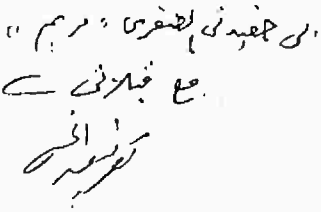

- النصائح الوجيهة فى تربية الحفيدة .
- مواجهة بين الجد وحفيدته !

إذا كان الحكيم قد راح يعد حفيده إسماعيل ليكون رجلاً مسلحًا بالعلم فى حياته ليخوض غمارها ومسئولياتها ، فإن الحفيد كان يعد نفسه من واقع هواياته العنيفة « كالكاراتيه » لكى يصير فى المستقبل ضابطًا لمكافحة الإرهاب ، بينما كان جده يحارب تلك الظاهرة الكريهة بفكره وكلمته . ورغم أن الحكيم لم يمتد به العمر ليرى حفيده رجلاً ، حيث تركه إلى الدار الآخرة وهو لا يزال بعد فى المرحلة الابتدائية ، فإنه فى الفترة التى عاشها مع أحفاده كان مهتمًا بإعداد مريم لتكون ست بيت ممتازة ، ولذلك حينما كانت ابنته زينب تأتى لتقول له « الشهادات وصلت » .

لم يكن يهتم بنجاح حفيدته أو عدم نجاحها ، ويطلب من ابنته استبعاد شهادة مريم قائلاً لها : لا تأتى لى بدرجاتها ولا تجعليها تأتينى بهذه الدرجات لأنها من يوم ما جاءت لم أر لها درجة عليها القيمة .. لا يهمنى إنها تنجح أو لا تنجح .. لكن الولد يهمنى إنه ينجح .. إنما الذى يهمنى فى البنت إنها تعرف تطبخ .. علميها إنها تكون ست بيت لأن الزمن القادم سيحتاج لست البيت أكثر من حاجته للمرأة العاملة » .

فتقول له زينب : يعنى يابابا لا داعى لتعليم مريم ؟ » .

فيصحح لها الحكيم مقصده ويقول :

أنا لست ضد تعليم مريم .. فلتتعلم وتأخذ شهادة إلى حد ما .. شهادة متوسطة أو عالية على حسب قدراتها .. ولا يهم إنها تكون متعلمة تعليمًا عاليًا أو مثقفة ثقافة عالية .. يكفى أن تكون نصف متعلمة أو نصف مثقفة .. المهم انها تعرف تتعامل بفهم ووعى كربة أسرة وست بيت .. لأن الزوجة الصالحة هى التى أستطيع أن آكل من طهى يديها طبقًا واحدًا شهيًا .. وستفرحيننى يوم ما تقولى لى ان صينية البطاطس عملتها مريم ..

وأن يلبس زوجها من صنع يديها رداء صغيرًا ولو طاقية نوم كستور .. ويجد حسن ذوقها فى ملبسها وزينتها ونظام بيتها » . ومع ذلك كان يهتم بتثقيفها ، فأهداها أول كتاب تعلم فيه الفرنسية ، فى نفس الوقت الذى يشجع حفيدته على أن تسلك المسلك الذى يجعلها ست بيت ناجحة فيقول لها :

ستفرحيننى يوم ما أدخل عليك وألاقيك منظمة حجرتك من غير ما تنتظرى مربيتك .. لازم تعتمدى على نفسك » .

بل أراد الحكيم أن ينتقل فى توجيهه لمريم من النصائح والكلام النظرى إلى الممارسة العملية ، فطلب إليها أن تتولى مسئولية ميزانية البيت ، وأعطاها المصروف فى آخر صيف قبل الذى توفى فيه ، وكانت مريم ممسكة متقشفة إلى حد لم يتعود عليه بيت آل الحكيم فى نفقاتهم .

ولم تكن الحفيدة تنسى حقوقها أو ماتعتقد أنه حق لها ، فتنتهز أى فرصة للحصول على النقود ، سواء فى الأعياد ، أو حينما تنجح فى الامتحانات ، أو حينما تقضى حاجة لجدها ، أو حينما تريد الاشتراك فى الرحلات المدرسية ، وكانت فى المرحلة الإعدادية ، بل حينما تكون هناك منحة قررتها الدولة للموظفين فيها ، كانت مريم تسأل جدها ، عما إذا قد أعطى المنحة لأمها حتى تنال منها نصيبها ؟

ويضحك الحكيم لذلك ، وأحيانًا يوافق ، وأحيانًا أخرى لا يوافق ، ولكنه فى أغلب الأحوال يعطى وبسخاء ، ومن الغريب أن الحكيم من الممكن أن يعطى مبلغًا كبيرًا ، ولكنه قد يبخل إذا كان المطلوب منه مبلغًا ولو صغيرًا جدًا .

غير أن المهم فى الأمر أنه إذا طلب منه أحد من أفراد أسرته مبلغًا من المال ، فإن على هذا الطالب أن يقنع الحكيم ، بالمنطق الذى لا ثغرة فيه

بما يريد الفلوس من أجله ، ثم لا يسأل الحكيم بعد ذلك عما أنفقت فيه لأنه لا يهتم بتتبع مسار صرفها ، ولكن يكفيه أن يكون طالب الفلوس منطقيًا ولديه حججه المقنعة فيكون تلبية الحكيم لطلبه مكافأة على حجته ومنطقه ، لأنه رجل فكر ومنطق ، رغم أنه قد يعلم فيما بعد أنه لم يكن وراء منطق وحجة من قصده فى « نقود » قضية حقيقية ولكنه لا يحب أن يحرج أحدًا ، وكثيرًا ما يكون الحكيم فى حجرته المغلقة عليه ، إلا أنه مع ذلك كان يحس بكل صغيرة وكبيرة تحدث فى البيت ، مثلاً لو جاء ضيف لزوج ابنته – قبل وفاته – كان يعرف من هو ذلك الضيف وكم استغرقت مدة زيارته .. لقد كان الحكيم رب الأسرة مثل الرادار الذى يستكشف ما يحدث فى بيته حتى وهو بين جدران حجرته المغلقة ، بل بنظرة واحدة منه لمن فى البيت يستطيع أن يعرف كيف تسير شئون البيت ، ولذلك كان الجميع يحسبون له ألف حساب .

وإن كانت حفيدته مريم قد استطاعت أن توجد نوعًا من الألفة بينها وبينه دون خوف أو مواربة . فإن أمها زينب ظلت أسيرة العلاقة التقليدية التى تعودت عليها مع والدها فلا تجرؤ على مفاتحته فى طلب فلوس زيادة عن الذى أعطاها لها ، وغالبًا ما تكون ابنتها هى وسيطتها إليه ، فتقول له إن أمها تريد منه مبلغًا معينًا من المال ، فيطلب منها أن تجيئه هى وتطلب ما تريد ، فتقول له الحفيدة إن أمها نائمة ، فيطلب منها إيقاظها لتحدثه هى بما تريده ، لأنه فى مسألة الفلوس لا يقبل وساطات . أما فى حالة إخفاء زينب عن أبيها أنها متعبة أو مرهقة أو مريضة فإنه يغضب ولا يقبل مبرراتها بأنها لا تريد مضايقته أو إزعاجه ، فليس ذلك مما يقبله لأن صحة ابنته ليست من الأمور الهينة التى تخفى عنه بحجة عدم إزعاجه بل إن محاولة إخفاء أى علة تلحق بصحة ابنته تجعله يتضايق أكثر ويثور عليها ، بعكس حفيدته مريم التى يعجبه فيها أكثر ما يعجبه أنها صريحة معه ،

فكلما أرادت أن تفعل شيئًا ، تذهب إليه ، وإذا لم توافق أمها لها على شيء تريده يكون المرجع جدها الذى يحسم لها كل الأمور ، فمثلاً حينما تريد الخروج ، وتعترض أمها حرصاً على نتيجة ابنتها لأن الأيام أيام امتحانات ويجب على مريم أن تكرس كل وقتها لتنجح ، فلا تجد الحفيدة سوى جدها تلجأ إليه ، فيعترض هو الآخر فى البداية على خروجها حتى لا يكون هو دائمًا مصدر تكسير كلام أمها لها فتتراخى طاعتها لها ، ولكن مريم تعرف كيف تقنع جدها فتقول له إنها ستقضى مع نزولها حاجيات البيت الناقصة أيضًا ، فيكون البيت مثلاً فى حاجة فى هذا اليوم إلى مبيدات للناموس والذباب والصراصير ، فتقول له إنها ستحضر معها « سوبر ريد » فيسمح لها بالنزول ما دام خروجها مقترنًا إلى جانب قضاء حاجياتها بقضاء حاجات البيت أيضًا ، وهو ما يحرص أن يعودها عليه كست بيت منذ الآن ، ثم يطلب منها أن تنادى أمها ، فيعطى لها دروسًا بعد نزول الحفيدة فيما يجب أن تمارسه معها فى تربيتها .. فمرة يطلب منها ألا تضغط عليها وتتشدد فى حبسها بل تعطيها الحرية مع المراقبة ، ومرة ينصحها بأن تعودها على الممارسة العملية لتدريبها على أن تكون ربة بيت ، ومرة ثالثة يعلمها أن تكون صديقة لها لكى تفتح لها قلبها لحاجتها فى مثل هذه السن لمن تصارحه وتسترشد بتوجيهاته ، وليس أصلح منها كأم فى هذا السبيل ، ولقد أثمرت كل توجيهات الحكيم التربوية لابنته فى تربيتها لحفيدته .

فالحكيم يسمح لمريم بالذهاب إلى النادى ، رغم أن والدتها تمنعها ، ولكنه ينبهها « أنها بذلك المنع ترتكب خطأً كبيرًا لأن الممنوع دائمًا مرغوب ، ولذلك ينصحها بأن تعطيها نوعًا من الحرية مع مراقبتها فى كيفية استخدام هذه الحرية .. لأن من فى مثل سنها (١٤ سنة) لا ينبغى حبسها وممارسة مهنة السجن والسجان معها .. فليس من المعقول أن

تقضى فراغها فى حمل شقيقها الصغير « محمد » وترعاه هى طول الوقت ، ويجب أن تكون للبنت شخصيتها « وكيانها » .

ولأن زينب لم تتعود على الخروج أو الذهاب إلى « ناد » أو إلى أى مكان آخر هنا أو هناك ، لأن أمها منعتها من كل ذلك ، فإنها ترى فيما يسمح به الحكيم لابنتها شيئًا غريبًا غير مألوف لها .

ولكن عندما عادت مريم ذات يوم من « النادى » وسمعت جدها يقول لأمها أن المذيعة التليفزيونية (.....) كانت عنده اليوم بمكتبه فى الأهرام ، تدخلت مريم فى الحديث وقالت : إن ابنها يبقى صاحبى ، فبهتت زينب وقالت لابنتها فى استغراب : صاحبك يعنى إيه ؟ ، فقالت مريم بتلقائية : إنه صديقنا فى النادى » ، فظنت زينب أن الحكيم سيقوم بضرب حفيدته ، ولكنه لم يفعل ، فظلت تنظر لابنتها غضبًا وقالت لها : كيف تعرفت فى النادى على هذا الولد ؟ قالت مريم ولم تزل بعد لا يلفتها شىء فى استجواب والدتها : هو يأتى للنادى وقال لى إن « مامته » بتعرف « جدو » .. ، ولاحظت زينب أن الحكيم يستمع إلى استجوابها لحفيدته بشكل طبيعى جدًّا ، ولم يستفزه ما استفزها من حديث « مريم » عن معرفتها بشخص غريب ، ولم تستطع أن تمد يدها عليها أو تلومها وتعنفها فى وجود « رب البيت الكبير » ، فلما انصرفت همت بالخروج خلفها ، فأمسكها الحكيم من يدها لتبقى جالسة كما هى وقال لها : أنا عارف إنك تريدين ضربها .. دعيها ولا تمسيها بسوء .. انت متصورة إنها ممكن تروح للنادى وتنعزل عن الناس ولا تكلم أحدًا .. يا إما تسمحى لها بالذهاب للنادى أو لا تسمحى .. ولكن الأفضل أن تذهب للنادى ولكن ليس كل يوم حتى لا تكون وجهًا مألوفًا وتصير حياتها هى حياة النوادى .. اسمحى لها مرة كل أسبوع تروح تلعب رياضة أو تقابل أصدقاءها وصديقاتها » .

فى البداية كانت الأم زينب تضغط على ابنتها ألا تذهب « للنادى » ولكنها لما سمحت لها بناء على نصيحة الجد الحكيم تبين لها أنه كان محقًا فى وجهة نظره ، فلم تعد مريم تذهب للنادى إلا مرة كل شهر ، تلبس ملابس الرياضة وتجرى فى الساعة السابعة صباحًا لمدة ساعة ثم تعود إلى البيت ، فلم يعد النادى بالنسبة لها إلا مكانًا لممارسة الرياضة ، ولذلك حينما تطلب منها أمها أن تذهب للنادى ، هى نفسها التى ترفض وتقول « أنا لا أحب صحبة النوادى ولا أستريح لشلل النوادى » ، أما حينما كانت أمها تمنعها عن « النادى » كانت تتضايق لأنها تعتبر أن عالم « النوادى » عالمًا جديد عليها تريد أن تستكشفه خاصة وأنها ترى صويحباتها يذهبن إليه ويتحدثن عنه ، فلما سمح لها بارتياده أصبح شيئًا عاديًا بالنسبة لها ، لا يثير إهتمامها أو فضولها ، وهكذا تبين للأم أن الجد كان على حق فى توجيهاته لها نحو حفيدته .

ولكن عندما جاءت مريم لتقول لها أنها تريد أن تذهب فى رحلة مدرسية إلى الأقصر وأسوان ، رفضت الأم بشدة وقالت لها : رحلة للأقصر وأسوان ؟ يعنى ستبيتين خارج البيت .. مستحيل » .. ولكن الحكيم كان له رأى آخر ، فقد قال لزينب « كيف تضيعين على ابنتك فرصة مشاهدة معالم وآثار بلدها .. إنك تتصرفين معها نفس التصرفات التى كنت تشكين منها مع أمك » . فقد كانت زوجة الحكيم شديدة المحافظة .. فلم تسمح لزينب بأى رحلة مدرسية إلا إذا كانت العودة فى نفس اليوم ، كرحلة لحديقة الحيوان مثلاً ، أما ماعدا ذلك فممنوع ، ولم يعرف الحكيم بتشدد زوجته على ابنتها إلا فى سنواته الأخيرة عندما كانت زينب تجلس إليه ، ويتذكران معًا حياة الأسرة زمان ، فتحكى له ابنته عن طبيعة معاملة أمها لها ، وكيف أنها قد ضيقت عليها وحرمتها من أى رحلة مدرسية حتى لو كان فيها مبيت ولو لليلة واحدة ، فيقول الحكيم

لابنته : ولماذا لم تخبرينى وقتها ؟ ، فتقول له « لأن كان فيه حاجز بيننا وبينك يمنعنا من أن نقول لك على شيء أو نتحدث إليك » ، فيتذكر الحكيم كيف أنه هو الذى صنع ذلك الحاجز من العزلة بينه كفنان وبين مسئولياته كرب أسرة ، واحترمت زوجته شروط عزلته فكانت تصرف كل أمور أبنائها بنفسها ، وها هو الحكيم لا يكتشف كل ذلك إلا بعد فوات الأوان ، ولذلك حينما تحدثه ابنته عن تشديد أمها عليها يذكرها هو بذلك عندما تتشدد على ابنتها ويسألها : لماذا تحكمين الحصار حولها هكذا ؟ ، فتقول له : لأن ماما كانت تتصرف معى كذلك ، فيقول لها : ولماذا تكررين مع ابنتك نفس التصرفات التى تحملين بسببها أمك كل مشاكلك والتضييق على حريتك لدرجة أنك حتى الآن لم تذهبى إلى الأقصر وأسوان .. فكيف تضيعين على ابنتك نفس الفرصة التى ضاعت عليك من قبل عندما كنت تلميذة مثلها .. دعيها تسافر .. ففوائد الحرية أكثر بكثير من فوائد التشديد والتضييق ، بل على العكس معاملتك لمريم معاملة الحارس للمسجون لن تحقق لك إلا عكس ما تريدين .

وقد اعترفت زينب للحكيم بأنه محق فى كل توجيهاته ، فقد أصبحت ابنتها صديقة لها بعد أن شعرت أن أمها تحترم حريتها وكيانها وشخصيتها فصارت تشاورها وتصارحها وتطلعها على خصائص تصرفاتها مما جعل الأم فخورة بابنتها تحكى لها عن تجربتها فى الحياة وتبين لها مواضع خطئها حتى لا تقع فيها .. ورغم أن زينب قد تفهمت مطالب والدها بشأن أسلوب تربيتها لابنتها وصارت تجنى ثمارها إلا أن ذلك لم يكن يمنع من وقت لآخر تأثرها بأسلوب والدتها فى تربيتها هى ، والتى ارتبطت بها أكثر من الحكيم ، فبعد أن وافقت على وجهة نظر والدها بسفر ابنتها مريم فى رحلة إلى الأقصر وأسوان ، ثم بعد ذلك فى رحلة أخرى إلى « شرم الشيخ» و « سانت كاترين » بسيناء ، تنفيذًا لتوجيهات الحكيم بضرورة عدم تضييع

أى فرصة على أحفاده بالثقافة السياحية بمشاهدة معالم وآثار بلدهم ، إلا أن مريم عندما أخبرت والدتها برغبتها فى الاشتراك فى رحلة مدرسية سمعت أن مدرستها تعد لرحلة إلى العاصمة الفرنسية فى الأجازة الصيفية ، كان رد الفعل مختلفًا ، وكأنما أرادت مريم أن تجسّ نبض أمها حيال رحلة منتظرة كهذه ، ولأن الأم انزعجت بشدة لمجرد أن يخطر لابنتها مجرد خاطر للمشاركة فى رحلة كهذه ، وقالت لها منهية الحديث فى هذا الموضوع « كله كوم وفرنسا كوم » ، وعلى الرغم من انزعاج زينب لشطحات ابنتها إلا أنها كانت مطمئنة إلى أن الحكيم رغم تسامحه مع حفيدته وسماحه لها برحلات داخل مصر إلا أنه لا يمكن أن يوافق على سفرها فى رحلة إلى باريس ، هكذا ظنت زينب أو خيل إليها أنها مطمئنة إلى جواب رب الأسرة الكبير فى هذا الموضوع الذى لن يختلف معها فيه ، وكذلك كانت مريم مطمئنة هى الأخرى إلى جواب جدها فى موافقتها على رغبتها بالسفر إلى خارج الجمهورية ، فقد كان يعدها إذا تفوقت فى دراستها وحصلت على درجات محترمة فى نهاية العام الدراسى فسوف يكافئها تشجيعًا لها برحلة إلى « باريس » ، ولكن زينب كانت ترى فى مثل هذا الوعد مجرد تشجيع معنوى من والدها لحفيدته ، لأن درجات مريم لم تكن فى الغالب جيدة مما يمكن أن يلزم الحكيم بالوفاء بوعده ، وكانت حين تحصل على درجات يمكن أن تثير حفيظة أمها كان يكتفى بأن يطلب منها ألا تغضبها ، وحين ذهبت لتطمئن على أحوالها الدراسية من مدرستها ، عادت لتخبر الحكيم بأن حفيدته مشاغبة ولن تفلح فى دراستها ، ولكنها مع ذلك متفوقة فى اللغة الفرنسية على الثلاثة فصول ، فيبتهج الحكيم ويرى فى ذلك مبررًا فى ألا تغضب ابنته ، حفيدته ، حتى يكون ذلك تشجيعًا لها على التقدم فى بقية المواد الدراسية ، ولذلك كان ترحيب الحكيم بالموافقة لحفيدته على المشاركة فى رحلة باريس ، رغم

اعتراض أمها التى قالت له وهى متأكدة أنه سيحسم المناقشة لصالح رأيها « أظن فى موضوع رحلة باريس حضرتك لن توافق » ، ولكنها فوجئت به يقول لها « فى هذا الموضوع بالذات أنا موافق » ، وقال لحفيدته « لو نجحت هذا العام أنا موافق على سفرك فى رحلة باريس » ، وصمتت زينب وهى تحاول أن تخفى خيبة أملها بعد أن قال رب الأسرة الكبيرة كلمته ، ومع ذلك كان لديها أمل فى إقناعه بالتراجع عن موافقته المبدئية ، مع نهاية العام الدراسى فتعود لمناقشته فى هذا الموضوع مرة أخرى ، ولكن قبل أن ينتهى العام الدراسى وتنجح حفيدته ، كان الحكيم قد مرض مرضه الأخير ، ولم تكن هناك مناسبة أو مجال لكى يمضى فى وعده لحفيدته أو يتراجع عنه ، ولن تستطيع مريم أن تداعبه وتشاركه وتدلله .

* * *

إن الحكيم يحبها وهى أيضًا تحبه وكانت تدخل عليه حجرته فى أى وقت ويدور بينهما حوار ينتهى غالبًا بحديث الفلوس ، فهى مثلاً حين تستأذنه فى الخروج ، يسألها عن خط سيرها ، فتخبره أنها ذاهبة لزيارة إحدى صويحباتها ، فيسألها عن اسمها ، وشكلها إيه ؟ حلوة ولا وحشة ؟ فالحكيم يحب صويحبات حفيدته ذوات الشعر الأصفر والعيون الخضراء ، فتلك هى النوعية التى يجذبه إليها جمالها كما اعتاد على ذلك فى باريس أيام الشباب ، ولذلك ففضلاً عن حبه لمريم بحكم أنها حفيدته فإنها أيضًا تنطبق عليها مواصفات الجمال التى يحبها ، وقد استطاعت مريم أن تعقد بين جدها وبين صويحباتها صداقات استمرت حتى فى الأجازات المدرسية ، فهو يلتقى بهن بعد إنتهائهن من تلقى دروسهن مع حفيدته ، فى المنزل ، بل إن واحدة من صويحبات مريم فى فترة الإقامة بالإسكندرية قبل الانتقال والاستقرار فى القاهرة ، كانت تأتى من الاسكندرية خصيصًا لرؤية الحكيم فى القاهرة ، فقد كانت صاحبات مريم هن صاحبات أيضًا

للحكيم خصوصًا الجميلات منهن ، أما القصيرات اللواتى لا يتمتعن بالجمال فيقول لحفيدته ألا تأتى بهن إليه مرة أخرى !

وإذا سأل الحكيم عن زميلة لحفيدته تريد زيارتها ، وأجابته بأن جمالها من النوع العادى ولكنها تعرف كيف تجعل نفسها جميلة بحسن ذوقها فى اختيار ملابسها وحسن هندامها ، يقول الحكيم : يعنى إيه ؟ فتقول الحفيدة الذكية مستدرجة جدها إلى ما تريده بطريقة غير مباشرة « يعنى هى تلبس ماركات مستوردة » ، ويدور حوار بينها وبين جدها حول ماركات الملابس وأسعارها الغالية والرخيصة ، ثم تدخل مريم إلى هدفها المقصود من هذا الحوار بأن تطلب من جدها « فستانًا » من تصميم « بيبركاردان » – مصمم الملابس الفرنسى الشهير – فيغضب الحكيم ويثور بعد أن استفزته حفيدته : ولماذا « بيبركاردان » ؟! محتجا بذلك على هذا الاتجاه للمستورد .

ولا تدرك حفيدة الحكيم من سر ثورته إلا أنه لا يريد لها أن ترتدى الملابس المستوردة لأنه سوف يدفع وهو لا يريد أن يكلف نفسه ويغرم غرامات باهظة . إن الحكيم يعجب بحفيدته ولكن كله إلا المستورد ، فهو كريم معها ولكن فى حدود المقبول والمعقول ، فعندما يعطيها مثلاً عشرة جنيهات لتشترى له شيئًا « كالأدوية » – مثلما يفعل مع حفيده – وتكون قيمتها أربعة جنيهات ، يترك لها الستة الباقية ، وهو يكافئها بعشرة جنيهات أسبوعيًا لأنها تقدم له « البيبسى كولا » ليس من جيبها بل من جيبه أيضًا ، فهو يعجب بطريقتها المنظمة فى تقديمها إليه على صينية مفروشة ومعها الثلج والملعقة ومناديل الورق ، فيفرح الحكيم بحفيدته النظيفة المنظمة والتى نجحت فى اكتسابه بسرعة منذ أن استقرت وإخوتها ووالدتها معه بشقته فى القاهرة ، وكانت بداية الصداقة بينها وبينه هى زجاجة المياه الغازية التى تحضرها له ومعها « فاتورة الحساب » ،

ولا يكون ابتهاج الحكيم بالمشروب المثلج فى حد ذاته ولكن ابتهاجه يكون بسبب « الفاتورة » التى تحرص حفيدته على تقديمها له مع أى شىء تقوم بشرائه له ، فهو يراها بذلك ذا عقلية اقتصادية مدبرة بعكس ابنته زينب وابنه الراحل إسماعيل اللذان لا يحسبان حسابًا لأى شىء ، فتأتى الفلوس فى أيديهما وتذهب ، ولا يعرفان كيف ولماذا ؟ لذلك حين يرى الحكيم حفيدته مريم تشترى له الشىء ومعه فاتورة الحساب ، يعتقد أنها ستكون أكثر نجاحًا وتدبيرًا فى حياتها ، وأكثر فهمًا ومهارة فى تعاملها مع الواقع المادى الذى أصبح يطبع العصر بطابعه ، فهو وإن كان يرى حفيدته تأخذ مقابلًا ماديًا أمام كل خدمة تؤديها له مما قد لا يسعده أنها لا تقدم خدماتها له لأنه جدها ولكن لأنها تتقاضى مكافأة عن تلك الخدمات ، إلا أنه رغم ذلك يكون سعيدًا بأن حفيدته ستكون هى زوجة المستقبل المدبرة ، وأنها بحرصها على الفاتورة والحساب ستفلح فيما لم تفلح فيه أمها ، ولذلك كان يقول لها : علمى أمك لتكون مدبرة مثلك » !

وعندما يرى أن نظام الطعام فى البيت قد اختل .. فلا مواعيد للأكل .. وكل من يريد أن يتناول شيئًا يتناوله فى أى وقت وفى أى مكان بعيدًا عن مائدة الطعام ، وأن نوعيات الأكل كثيرة على الغداء ، مكرونة ، وبطاطس ، وخضر ، ولحم ، وعيش ، فقد طلب من منصورة ألا يحتوى الطعام بعد ذلك على النشويات خوفًا على الأولاد من السمنة ، والاكتفاء باللحم والسلطة والخضر ، ولكنه عندما فوجئ بارتفاع فاتورة اللحم ، قال لابنته : البلد لم يعد فيها لحوم ، والسادات قال اتقشفوا .

فلما قالت له ابنته : ألم تكن أنت الذى نصحتهم بالابتعاد عن النشويات وأكل اللحم ؟

فقال لها : فليأكلوا النشويات ، وبدل اللحم فيه عدس .. فيه فول !

أما مسألة عدم الانتظام فى مواعيد الطعام ، فإنه رغم إنزعاجه لهذه

الفوضى التى لم يتعود عليها ثم تطبعه بها بعد ذلك ، إلا أنه كان عندما تعده حفيدته مريم بأنها سوف تتولى عملية تنظيم مواعيد الطعام وإعداد المائدة فى مواعيد محددة بحيث لو تخلف عنها أحد فلا طعام له إلا عندما يحين موعد الوجبة التالية ، فإن الحكيم كان يبتهج لمجرد أن تفكر حفيدته مثل هذا التفكير ، ويسعد لنواياها فى النظام حتى لو لم تنفذ شيئًا مما وعدت به ، إلا أنه يرى فى مجرد تفكيرها بذور أمل فى نجاحها فى حياتها المقبلة حينما يكون لها بيت وأسرة ، صحيح أنها لم تفعل شيئًا يدل على ذلك إلا أنه يلتمس لها العذر لقلة حيلتها وهى فتاة صغيرة على أن تغير نظام بيت بأكمله من الصعب إنتزاع أفراده من عاداتهم بسهولة ، ولكن حينما تكبر مريم وتستقل ببيتها فسيكون باستطاعتها حينذاك أن تنجح فيما لم تنجح فيه فى بيت جدها ، ما دام هذا هو تفكيرها وحبها للنظام .

وفى مقابل هذه الصورة الجميلة التى انطبعت لدى الحكيم عن حفيدته ، تختلف الصورة المنطبعة لديه عن أمها زينب ، فرغم أنها منظمة فى حياتها إلى درجة متعبة لأولادها وللحكيم نفسه الذى كان يقول لها :

لم يبق إلا أن تعلقينا فى النجفة حتى يظل البيت على نظافته !

فإن الحكيم عندما يرى لها تصرفا بعيدا عن النظام تنطبع لديه صورة نهائية عنها أنها غير منظمة على الإطلاق فى حياتها ، فقد شاهدها ذات مرة وهى تلتقط بقايا طعام وحلوى ، أخذ ابنها محمد (١٨ شهرا) غرضه منها ثم ألقاها على الأرض ، فامتدت يدها بها إلى فمها عن غير قصد ، فاعتبرها الحكيم إنسانة مهملة فوضوية عديمة النظام ، ولا يمكن أن يغير نظرته إليها مهما حاولت إقناعه ، فقد رأى بعينيه مالا يجعله يغير قناعاته ، ولذلك حينما تأتى مناسبة فى مجال المحافظة على الصحة والنظام يقول لحفيدته :

أصل أمك غير منظمة ! وتظل الصورة التى رآها يتردد صداها فى ذاكرته ويعبر عنها لسانه كلما استدعتها المناسبة ، مما يجعل زينب تشعر بكلمات أبيها كالسوط الذى يلهب ظهرها ويحرق دمها ويشعرها بموت معنوى لا تطيقه ولا تحتمله ، ولذلك كانت تخشى أن يكتشف شيئاً جديداً مما قد يرى فيه تصرفا يدل على قلة النظام ، فقد كان من رأيها أن تكون فترة الصباح لتنظيف البيت ، ثم يستقبل الحكيم ضيوفه فى فترة العصر ، ولكن الحكيم كان يفضل استقبال ضيوفه فى الصباح بدءاً من الساعة العاشرة والنصف ، وفى صباح يوم سبت كان التلميذ على موعد فيه معه واتصل به كالعادة تأكيدا للموعد باستئذانه فى الحضور إليه ، ولكن الذى رد عليه فى التليفون كانت ابنته زينب التى سمعها تطلب منه إرجاء موعد حضوره إلى يوم آخر لأنها قد بدأت فى أعمال المسح والتنظيف فى ذلك الصباح ، وأن حضوره حيث يستقبله والدها فى شرفة صالة البيت سوف يكشفها أمامه وتتلقى منه لوماً وتأنيباً على انعدام نظامها فى عدم التزامها بأعمال التنظيف فى آخر النهار حتى يتسنى له إجراء مقابلاته المفضلة فى فترة الصباح ، ووجد التلميذ نفسه حائرا فكيف يجرؤ على تأجيل موعد حدده له أستاذه ، غير أنه كان مشفقا على زينب من غضب والدها وثورتها عليه ، فتحجج للحكيم بأن الموضوع الذى كان سيراجعه معه لا زال فى حاجة إلى تعديل ولذلك طلبت منه إعطائى موعداً آخر ، ولكنه قال له بلهجة كأنها الأمر : أنا فى انتظارك ، وأسقط فى يده ، واتصل بعد قليل على أمل أن يكون المتحدث هو « زينب » ولكن ردت عليه « منصورة » مديرة البيت وأخبرها بالمأزق الذى هو فيه ، فوجدها تطمئنه وتطلب منه الحضور لأن « البيه » فى انتظاره ، ويبدو أنها كانت قد حلت المشكلة بمكانتها عند الحكيم ، وأفهمته أن أعمال تنظيف البيت فى ذلك اليوم بالذات لم تكن لتحتمل التأجيل إلى آخر النهار وأنها لذلك تلتمس منه

العذر ، واستقبل الحكيم تلميذه فى ذلك الصباح فى غرفة مكتبه ، ولولا « منصورة » لكانت « زينب » قد سمعت لها كلمتين لم تكن بحاجة إليهما ، وتكفى الفكرة التى أخذها عنها والدها .

وقد استغلت مريم حب جدها واهتمامه بالمحافظة على الصحة والنظام لتمارس شقاوتها ومشاكستها مع « منصورة » حينما تغضب عليها أو تختلف معها ، والحفيدة تعلم مدى حب وتقدير جدها لمديرة بيته ولن تستطيع أن تجعله يقف معها ضدها ، ولهذا فإنها تضرب له على وتر النظام والنظافة والصحة ، فتأتى له لتقول على كوب « الزبادى » الذى أتت له به «منصورة» : ياجدو .. هذا الزبادى ملىء بالاشعاع(*) .. ومنصورة لا يهمها شىء .. إنها تترك المطبخ دون تنظيفه فهو ملىء « بالصراصير » .. وأنا بعينى رأيت « صرصارًا » فى المطبخ ! ، فينفعل الحكيم خشية على صحته وصحة من فى البيت ويقول بلهجة يبدو فيها الغضب الذى لا تشعر به « منصورة » أو يجعلها تأخذ على خاطرها منه : « ماذا تفعلين يامنصورة .. إذا كان المطبخ غير نظيف .. ألا تأخذين بالك ؟! » .

وتكتم الحفيدة ابتساماتها وضحكاتها فقد نجحت فى استثارة جدها على مديرة بيته ، وهو طبعًا لا يعرف أبعاد اللعبة التى قامت بها حفيدته لأنه لا يعرف أن بينها وبين « منصورة » خلافًا ، جاءت بسببه تحاول أن توغر صدره عليها ، ولكن مريم لا تلبث إلا أن تشعر بالعطف على « منصورة » فتذهب إليها مداعبة : معقول جدو « يزعق » لك ؟! » ، ثم تقوم بعمل المصالحة بينهما لإزالة ما اعتقدت أنه خصام ، وفى أحيان أخرى

(*) أيام إنتشار الجدل حول تلوث بعض الأطعمة المستوردة بإشعاع المفاعل النووى السوفييتى « تشرنوبيل » الذى انفجر إهمالاً .

كانت « مريم » تأتى لتقول لمنصورة على أشياء لم تحدث ، بقصد الضحك والمشاكسة ، ولما اكتشفت « منصورة » ذلك كانت تطلب منها ألا تقول لها على أشياء لم تحدث لأنها تصدقها فى كل شىء تقوله لها ، فتشفق عليها مريم وتقول لها : إنها آخر مرة .. أنا غلطانة » ، ولكن شقاوة الحفيدة مع « منصورة » ليس فيها شىء اسمه آخر مرة .

ورغم دلال مريم على جدها واعتبارها عنده أفضل مثل للنظافة والنظام حتى من والدتها ، إلا أنه حينما انفعل ذات مرة على « أمها » ، حدث شىء لم تكن تتصوره الأم .

* * *

فقد تولت ابنتها الرد على جدها دفاعًا عنها ، فقالت له : كيف تثور على « مامى » وتكلمها بهذا الشكل .. ألا يكفى أنها تدبر أمر هذا البيت وتتولى أعباءه ومسئولياته وتتحملنا رغم كل هذا » ؟ ! وبين دهشة الأم وذهولها من جرأة ابنتها التى فوجئت بها ، حاولت إخراجها حتى لا تتأزم الأمور بينها وبين جدها ، فمريم لا تفهم أن هذه ليست أول مرة يثور فيها الأب على ابنته ، وهى ثورة مؤقته لا تلبث أن تزول خلال عشر دقائق يصالحها بعدها ، ولكن مريم لم تكن تعرف ذلك عندما وقفت تزود عن أمها ، صحيح أنها ترد بأدب ولكنها المرة الأولى التى ترى فيها زينب أحداً يقف أمام الحكيم ويرد عليه وجها لوجه ، وبعد أن ردت الحفيدة على جدها بعفوية وتلقائية الابنة المحبة لأمها دفاعاً عنها أمام ما اعتقدت أنه إهانة لها حتى لو كان ذلك والد أمها الذى هو فى نفس الوقت جدها الذى تحبه ويحبها ، فإن الأم وقد فوجئت بهذه الجرأة من إبنتها أمام رب البيت الكبير ، ظنت أن الحكيم سوف يفزع مثل فزعها ويتطور الأمر إلى ما هو أسوأ ، فأرادت أن تتلافى المسألة ، فطلبت من مريم أن تغادر الحجرة فوراً فى محاولة منها لتهدئة الموقف المتوتر ، ولكن ابنتها ردت عليها بما يعكس

ثقتها فى قدرها عند جدها ودلالها عليه ، فقالت « أرجوك « يا مامى » لا تتدخلى بينى وبين جدو » ، ولم يتكلم الحكيم ، الذى لم تظهر على وجهه سوى ابتسامة خفيفة لمحتها زينب فاطمأنت على أن شيئاً مما تصورته من مخاوفها لن يحدث ، وغادرت هى الحجرة وهى لا تزال متعجبة مندهشة مما رأت ومما سمعت ، ولكن دهشتها ازدادت بعد حوالى خمس دقائق عندما حدث مشهد عجيب آخر لم تتوقعه ، فقد رأت مريم تقوم بإطعام جدها كوبا من « اللبن الزبادى » ، وتساعده على رياضة المشى وهو سعيد يضحك ، فلم تصدق زينب نفسها وهى ترى الصورة المتوترة بين الجد وحفيدته قد انقلبت خلال دقائق إلى صورة أخرى لا يتخيلها أحد ، ولذلك حينما سألت زينب ابنتها بعد ذلك عن سر هذا التحول من موقف يشبه الخصومة إلى موقف كله حب ومودة ، أوضحت لها ، أنها قالت لجدها كل مافى نفسها وانتهى الأمر ، وليس معنى ذلك أنها خاصمته ولن تجلس معه ، بل على العكس هى تحبه ولذلك فهى تصارحه وهو يحب صراحتها ، فذلك يسعد الحكيم ، الذى تركها تفرغ كل مالديها من شحنات الانفعال مكتفيا بابتسامة هادئة مستمعا إليها ليعرف وجهة نظرها مهما كانت غاضبة ، فهو ديمقراطى فى معاملاته ، ويتيح للطرف الآخر أن يتحدث إليه ولو بانفعال ثم يقوم هو باقناعه وكسبه إلى وجهة نظره ، ولقد فهمت الحفيدة وعرفت مالم يفهمه أو يعرفه أبناء الحكيم أنفسهم الذين كانوا يتجنبون الحديث إليه ، أما مريم فقد استطاعت أن تخترق جدار عزلة جدها ، تلك العزلة التى لم تستطع أمها أن تقترب منها إلا بحذر ، ولذلك حينما وجدت ابنتها تداعب الحكيم وتقبله وتحتضنه ظنت أن ذلك مما يضايقه ويغضبه لأنها لم تتعود على هذه العلاقة الطبيعية المفروض أن تكون بين أب وابنته ، فلم يحدث أن تجرأت على تقبيل والدها أو احتضانه لأنه لم يعودها على ذلك هى وأخيها الراحل إسماعيل ، لذلك طلبت من إبنتها ألا

تضايق جدها فكان ردها أن جدها يسعد بذلك ولا يتضايق ، وكان الحكيم بالفعل كذلك لأنه أدرك عواقب ابتعاد أبنائه عنه ، وكان ذلك بعد فوات الأوان ، فأراد أن يعوض ما فات مع أحفاده ، فسمح لهم بما لم يسمح به لأبنائه مما أزعج زينب التى قالت له ذات مرة بعد انصراف مريم ومداعباتها لجدها ، أنها ترجو ألا يكون قد تضايق من حفيدته .

فقال لها : دعى مريم تتصرف معى بتلقائية . فهى تفهمنى وتعرف كيف تعاملنى .. لا تتدخلى بينى وبين الأولاد .. أنا أحبهم لأنهم يتكلمون معى بصراحة كانت غائبة عنكم زمان حينما كنتم تعاملوننى كأننى « بوبع » .. يعنى حاجة يخوفوا بها العيال .. لذلك بعدتم عنى ولم تكونوا تتخطون عتبة حجرتى كأن بينى وبينكم حاجزاً .. وأنا لا أريد اليوم حاجزاً بينى وبين أحفادى .. لا تعودينهم أن يخافوا منى .. دعيهم يقولون مافى قلوبهم ونفوسهم فأنا أعرف كيف أقنعهم وهم أيضاً يعرفون كيف يقنعوننى .. فاتركى العلاقة بينى وبينهم تستمر سلسة طبيعية .

ولا تملك زينب أمام حجة ومنطق الحكيم سوى الصمت ، ولم تعد تناقش والدها فيما يحدث من تطوراتِ العلاقة بينه وبين أحفاده .

الفصل الخامس

الخليفة

● نصيحة من الحفيد الأكبر لأمه :
حذار أن يكون إبنك مثقفا .

كانت أكثر هذه العلاقات طبيعية هى علاقة توفيق الحكيم بأصغر أحفاده ، « محمد » ، ذى الثمانية عشر شهرا والذى أراد الحكيم أن يمارس معه الأبوة كاملة منذ البداية ، فمحمد لا يزال طفلا ، وهو يريد أن يعيش معه دور الأب الذى فاته أن يعيشه مع أبنائه منذ بداية طفولتهم ، ذلك رغم أن الحكيم نفسه كان معترضاً على مجيء « محمد » ، ونصح أمه بإجهاضه ، حتى لا تحمل نفسها أعباء جديدة بجانب مريم ، وإسماعيل ، خاصة بعد وفاة زوجها ، ولكن زينب كعادتها كانت لا تفعل إلا ما تقتنع به ، فأنجبت مولودها الذى أسمته على اسم أبيه الراحل ، ثم كان من العجيب أن توفيق الحكيم نفسه هو الذى راح يحلل لابنته حكمة وجود حفيده الجديد الذى لم يكن راغباً فى وجوده ، بينما كانت زينب التى صممت على عدم إجهاض نفسها ، هى بذاتها التى تقول بعدما أنجبت وليدها : هل سأبدأ مشوار الأطفال من أول وجديد ؟

فكان الحكيم هو الذى يقول لها : لن تدركين حكمة وجود « محمد » إلا فيما بعد .

وكان يقارن لها بين ظروف مولده يتيما ، وظروف مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

ويرى الحكيم أن حفيده الجديد يشبه جده ، وكان يقول بأن الله سيعوضه عن يتمه بأن يجعل له شأناً كبيراً فى المجتمع ، وتوقع أن يكون هذا الشأن فى مجال الكتابة والأدب ، فقد كان يراه يشبهه فى ملامحه ، ويراه يدخل عليه حجرته ينظر إلى الكتب ، فيقول لأمه : أنظرى محمداً إنه يهتم بالكتب وينظر إليها .. إنه هو الذى سيحافظ على تراثى .. إن جده ناشر وأباه ناشر .. وجده لأمه هو توفيق الحكيم .. فيمكن العلاقة

بالكتب والأدب تمتد إلى محمد بالوراثة » ، وعندما كان أخوه إسماعيل يسمع هذه التنبؤات من جده لحفيده الصغير ، كان يقول لأمه : خذى بالك .. حذار يطلع مثقف .. إنه لن يفلح .. وسيكون معقداً » ، وكأن الحفيد المشاكس يقرأ الواقع الموجود بأنه لم يعد للمثقفين شأن أمام الطبقات الدنيا الجديدة ، وهو نفس رأى جده .. فقد تراجع المثقفون .. لم يعد العصر عصرهم .. ورغم أن الحكيم كان يقارن بين حال الأدباء وحال فئات الأخرى تقدمت الصفوف فى المجتمع كأهل الفن والكورة وأصحاب الحرف ، إلا أنه حتى لو عاد به الزمان ليكون شيئاً غير توفيق الحكيم لما استطاع وما أفلح أن يكون غير الكاتب المفكر الأديب ، رغم أنه فى بعض أحاديثه الأخيرة كان يعلن أنه لم يفعل شيئاً فى حياته له قيمة ، غير أنه كتب بعض الكلام على الورق ، وأنه تمنى لو كان يجيد « الرقص » البلدى لكى يرقص لنا ، أو لو كان لاعب كرة « قدم » لكى يدخل لنا فى شبكة الخصوم « جونين » ، لأنه يرى أن القيمة الوحيدة التى يتبناها المجتمع – الآن – هى المال فقط بصرف النظر عن مصدره .. رغم كل هذه التصريحات المتشائمة فقد كان الحكيم فى اعتقاده أنه حتى لو بدأ حياته فى هذا العصر ما تمنى ، وما أراد إلا أن يكون كاتبا ومفكراً ، وهاهو يتمنى لحفيده أن يكون وريثه فى هذا المجال ، ولا يتمنى الجد لأحفاده إلا كل خير يرجوه لهم .. لأنه كما يقولون فى المثل الشعبى « أعز الولد ولد الولد » ، أى أن المحبة والإعزاز لا تكون من الأب لابنه قدر ما تكون لحفيده ، ومهما يكن الفكر والأدب ليسا وسيلة مثلى لجمع المال فى العصر المادى ، إلا أنه تبقى القيمة واحترام النفس ، وهذا أشد ما يحرص عليه الحكيم ، وكان يتمنى أن يكون حفيده محمد ، محمد على حسن ، خليفة له ، وكان يقول له كلما اقترب من مكتبه ومكتبته : خذ بالك من كتبى يا محمد .

وكأنه يوصيه أن يكون حاملاً لقلمه ، ومن الطبيعى أنه لولا قناعة الحكيم بأن أمانة القلم ذات جدوى ولصاحبها قيمة ومعنى - رغم كل المقارنات بأصحاب المهن الأخرى فى عصر المادة - ما تمنى لحفيده أن يكون هو المحافظ على تراثه ، الذى ينهج نهجه ويسير على دربه .

وكان « محمد » يمسك بملابس جده ، ويرتكن عليه ، ويشد عصاه يريد أن ينتزعها منه ، فراح الحكيم يتحدث إليه كأنه يسمعه ويفهمه ، فقال له :

إيه رأيك لو عملنا اتفاقية .. سأعطيك عصا صغيرة تناسب طولك وسنك وتمشى بها معى فى الطرقة » . وأهداه عصا صغيرة لكى لا ينازعه فى عصاه الكبيرة ، ولكن الحفيد لا يقنع إلا بالعصا الكبيرة ، فيحاول أن يأخذها منه ، بينما الحكيم يحاول إرضاءه بإعطائه عصا أخرى كبيرة من تلك العصى التى يحتفظ بها ، ولكن يبدو أن شقاوة الطفل وذكاءه يجعلانه متيقظاً لأى محاولة لإثنائه عن عزمه فى الحصول على العصا التى يتوكأ عليها جده بالذات ، فيرفض أى عصا غيرها ، مما اضطر الحكيم إلى عقد معاهدة مع حفيده ، فقال له : عندما أتمشى دع لى العصا .. وعندما أدخل حجرتى خذها العب بها .

ورغم ذلك كان الحفيد الصغير يحلو له أن يسير بالعصا الصغيرة - مؤقتا - إلى جوار جده ، ويقلده فى مشيته وحركته ، وكان يحلو له أن يعبث بعجلته الطبية ، فيداعبه الحكيم قائلاً :

يا ولد يا عكروت ستفسد العجلة ، . وكان الحكيم يلاعب حفيده بما كان يلاعب به أخويه : إسماعيل ومريم ، فى طفولتهما ، فيضع يده فى « جورب » ويشكل له به أشكالا مختلفة بأصابعه : كلبا ، أو حمامة ، أو طاحونة دوارة ، ويقلد أصواتها ، وكانت زينب فى طفولتها تنبهر بمثل هذه الألعاب حينما يلاعبها بها والدها فى تلك الأوقات القليلة التى يعطيها لها

ولأخيها ، أما اليوم فإن « محمداً » لا يلتفت إلى ألعاب جده ، إنه ينظر إليه باستغراب ثم يدير له ظهره ، باحثاً عن شيء آخر مثير يلعب به ، فهذا الجيل قد تجاوز به التليفزيون سنوات عمره المحدودة ، فقد صارت معلومات طفل اليوم أكثر ، وإدراكاته أوسع ، لذلك فإن ما كان يستوعبه جيل الحكيم ، فى سنوات ، صار الجيل الحاضر يستوعبه فى سنة أو شهور قليلة ، تماماً مثل البشرية فى مراحل تطوراتها المختلفة ، حتى صار ما أحرزه العلم من تقدم فى السنوات الأخيرة ، يساوى ما تحقق خلال مئات السنين الماضية ، فى مجال الطب مثلاً ، كانت هناك أمراض يستعصى علاجها للأطفال . أصبحت الآن من أبسط ما يتم علاجه ، ورغم ذلك فقد كان الحكيم بالنظر إلى ما كان فى جيله يحرص على صحة حفيده ، محمداً ، ويطلب من أمه أن تحرص على مواعيد تطعيمه ، والاعتناء بإرضاعه ، وكان يناقش الطبيبة التى تقوم على رعايته فى كل ما يخص صحة حفيده ، بل إن الحكيم حينما كان بالمستشفى ، لم يكن مشغولا بمرضه قدر انشغاله بحفيده الصغير ، فيكون أول سؤال منه لأمه عنه . ومن العجيب أنه فى فترة وجود الحكيم بالمستشفى كان « محمد » يكتفى بإلقاء نظرة على حجرة جده المفتوحة دون أن يدخلها ، بعكس ما كان يفعل حين كان جده موجوداً بها ، وتحاول أمه أن تحول بينه وبين دخولها حتى لا يزعج جده ، ولكنه يظل يطرق الباب بيديه الرقيقتين ، ويكون هو الوحيد الذى يسمح له جده بدخول حجرته والعبث بها ، حتى دولابه الذى لم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب منه ، كان يسمح لحفيده الصغير أن يفتحه ويبعثر محتوياته دون أن ينزعج ذلك الانزعاج الذى كان يحدث عندما تنقل ورقة من المكان الذى وضعها فيه .

وعندما تحدث زينب والدها عن حفيده الذى لا يقترب من حجرته فى غيابه ، وتذكره بما كان منه فى حضوره ، فإن هذا الحديث عن الحفيد

الصغير يكون منبها ومنشطا للحكيم لكى يكون فى أحسن حالاته ، ويعلق قائلاً لابنته : إننى أمارس الأبوة لأول مرة فى وجود محمد لأننى لم أشعر بكم وأنتم أطفال .. لذلك أنا أحس الآن لأول مرة أننى أب » .

وكان يجعل أمه تضعه فى عربة الأطفال ليلاعبه ، حتى تقضى زينب حاجيات البيت ، وكان يقول : « لم أعرف أبوتى إلا مع محمد » ولكن الحكيم الذى بدأ يشعر بأنه أب مع حفيده الصغير ، لم يستطع أن يستكمل مشوار الأبوة إلى نهايته فقد رحل الجد ولن يعود .

ولكن الحفيد الصغير لا ينسى جده ، فإنه عندما يرى صورة لتوفيق الحكيم فى صحيفة أو على غلاف كتاب ، فإنه يشير إليها مؤكدا أنها صورة جده أو كما يقول بلغة الأطفال :

« ددو .. ددو » .